جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات



قسم اللغة والادب العربي

المحاضر: البروفسور مرتاض عبد الجليل

المقياس: لسانيات التراث

المستوى: ماستر1/2

المحاضرة 1:

**ازدهار اللّغة العربية بين لسانيات التراث وعلم اللّغة الحديث**

المحاضرة2

**إشكالية المصطلح اللّساني والترجمة**

المحاضرة 3

**هل لدينا لسانيات عربية**

المحاضرة 1:

**ازدهار اللّغة العربية بين لسانيات التراث**

**وعلم اللّغة الحديث**

**عبد الجليل مرتاض**

**[ ج. تلمسان]**

**ما اللغة إلا إبداعية للاستعمال**

لا ازدهار لِلُغَةٍ خارج متكلميها ومستعمليها تبليغا وتوظيفا في شتى الإبداعات العلمية والمعرفية التي تعد استشرافيا وهاجسا قوميّين مستمرين.

إن اللغة العربية التي تحدثنا عنها ومازلنا وسنبقى نتحدث عنها إلى أن يحدث الله أمرا كان مفعولا لغةٌ إبداعية بامتياز خُتِم على براءة اختراعها منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، وكل شيء تمَّ وطُوِيَ أمره في غفلة أو يقظة من التاريخ والزمان، وما وصلنا من تراث لساني لها يجسده بصدق ذلكم الاستثمار الذي خلّف لنا هالة لسانية مشرقة متكاملة كميا لا تنفد ولا تبلى بالاستعمال، وكيفيًا لا يَغْنى عنها إبداع.

لكن مهلا، إذا قلنا إن لغتنا العربية التي تعشقنا أكثر مما نعشقها، وتوفي لنا أزيد مما نوفي نحن لها، ليست إلا وثبة مجهولها أشدُّ غموضا من معلومها، وليست إلا هزة ارتدادية من الإبداع، فإن إبداعيتها لم تَتِّمَ بمعجزة لسانية غير متوقعة، أي لم تحدث خارج بيئتها الطبيعية وبمعزل كلي أو جزئي عن متكلميها، ولا أدلّ على ذلك أنه لا يوجد عربي يفهم مثلا " لسان العرب" أو يحفظه أو حتى يحسن استعمال ما ورد فيه عفويًا وشفاهًا عن العرب الطبيعيين كعرب ما قبل التدوين من عرب عاربة أو مُسْتَعْرِبَة.

**أصناف إبداعية الاستعمال اللغوي**

وعلى هذا، فإبداعية الاستعمال اللغوي إبداعيتان؛ إبداعية مطلقة، وتخص عربا بالأصالة أو مَنْ نزل باديتهم وجاورهم وظعن بظعنهم، حتى وإن كان من نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية

وغيرها ممن ينتمي إلى العرب صاروا عربًا باعتبار البلاد التي سكنوها كانت تسمى العَرباتِ، لكن لم يكن يُعَّول عليهم في الفصاحة وسلامة اللغة من دخول الدخيل فيها، ومن ثمَّ ظلت هذه الفئات خارج أي عمود من أعمدة لسانيات التراث لاحقا حين غامر ذلك الرعيل المبكر من اللغويين العرب لجمع شتات اللغة العربية سماعا من أفواه فصحائها المبعثرين في خيمهم وسط أودية وربوات وجبال ورقع جغرافية وعرة المسالك غير مأمونة المهالك، وأما الإبداعية اللغوية الثانية، فلا تخص إلا المتكلمين لهذه اللغة ما بعد التدوين وفساد السليقة العربية، ويمثلها خَيْرَ تمثيلٍ كلُّ جيل من أجيال العامية، كما

يحدث بيننا اليوم، ولربما ثَمَّت إبداعية ثالثة، وهي محدودة جدًا، وتتعلق بمن يستعمل العربية الفصيحة في نشاطاته المهنية كالسياسة والدبلوماسية والتعليم... لكنه لا يتكلمها إلا نادرًا خارج هذه النشاطات.

**هل عاق العامل الزمني اِزدهار اللغة العربية ؟**

وبناء على ما ألْمِعَ إليه أعلاه، فإن مظاهر لسانيات التراث العربي مظاهر ثابتة ومتحركة؛ فالثابتة مصادرها اللسانية القوية الثرية المتمثلة بقرآنها وحديثها وأشعارها وأمثالها وسجع كهانها، وما أضيف إليها من نصوص أدبية لاحقة تبناها اللسانيون العرب القدماء إلى غاية 150هـ، وهو تحديد زمني لا يخلو من نقد وجدل،ليس مكانه هنا مناسبا لبيان موقفنا من ظلم لغوي صارخ، ظلم لا يعزّر لسانيات التراث العربية نفسها، وكمثال واحد بسيط على هذا الظلم اللغوي في حق العربية ذاتها الشاعر العظيم بشار بن برد العُقَيْلي( 95-167 هـ/ 713-783م) الذي عاش خمسا وخمسين سنة في عصر الاحتجاج، وأقل من سبعة عشر عاما خارج فترة الاحتجاج اللغوي، لا يُلْـتَفَت إلى شعره للاحتجاج به لغويا حتى إن سيبويه أورد ألفا وخمسين بيتا شعريا ولما يحتجّ ببيت واحد من شعره، حتى وإن كان سيبويه لا يلام أية ملامة، لأنه لم يحذ إلا حذو أساتذته البصريين في توجيهاتهم المنهجية إزاء المسألة اللغوية.

غير أن ما لم أفهمه حتى الآن، كيف يجيز الأصمعي (213 هـ أو 217هـ) لنفسه أن يقول :" خُتِمَ الشعر بابن هَرْمة؟"1

وإبراهيم علي بن سلمة بن عامر بن هَرْمَة القرشي مات سنة 176هـ،كما جاء في بعض المصادر " ثم دخلت سنة ست سبعين ومائة... وفيها مات إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة"2

على حين أن بشارًا قتل سنة 167هـ أو 168هـ؟، فضلا عن أن الرواة والنقدة كلهم متفقون على أن بشارًا " يعد من الخطباء البلغاء الفصحاء"3

ومما خالجني في مسألة إقصاء بشار، وشعره يمثل أفصح وأبلغ مدونة بنيوية في اللغة العربية بعد الشعراء الجاهليين، أن الرجل كان ضحية سياسية ولغوية، فأما السياسية، فالقوم في كل زمان ومكان عبيد ملوكهم، إلا من رحم ربك، إذ بعد الوشاية به من أعدائه وحسدته إلى الملك العباسي (المهدي ت: 169هـ) وإعدامه مقابل اتهامات زائفة ...لم يجرؤ اللغويين على رواية شعره وقبوله في الاحتجاج لما في المسألة من حرج أمام ولديه الهادي(ت:170هـ) والرشيد (ت:193هـ)...

وإذا كان في هذه الالتفاتة اعتراض، فإنه كان ضحية اجترائه على اللغة، بحيث كان يقيس أحيانا ما لا يقاس عليه في اللغة ويضمنه أشعاره، من ذلك أن الأخفش (سعيد بن مسعدة المجاشعي ت:215هـ) وهو أول من ورث كتاب سيبويه المسمى" قرآن النحو".

يَطْعُن ( أو يَطْعَن من باب نفع ) على بشار في قوله:

والآن أقصر عن سمية باطلي وأشار بالوجَلَى عَلَيّ مُشَيرُ.4

حيث صاغ " الوجلى" على وزن " الفعلى" وهو مشتق من الوجل مريدا به التقوى، أي كأن هذا المشير أشار عليه بتقوى الله، مع أننا نقول:

" وَجِلٌ" للمذكر و"وَجِلَةٌ " للمؤنث بمعنى الخوف ( وربما قيل: أَوْجَلُ في المذكر أيضا ).

مثلما أخذ عليه " الغَزَلَى "، (كناية من الإقلاع عن الغزل) في قوله:

عَلَى الْغَزَلَى مِنِّي السَّلاَمُ فَرُبَّمَا لهوتُ بها في ظل مُخْضَرَّةِ زَهْرِ

بدعوى أن الأخفش الأوسط لم يسمع من الوجل والغَزَل " فَعَلى" وهذا ليس مما يقاس، بل يعمل فيها بالسماع، كما أخذ عليه في بيته:

تُلاَعِبُ نيِنَانَ البحورِ وربما أَيْتَ نفوسَ القوم من جَرْيها تَجْرِي

بذريعة أنه لم يسمع بنونٍ ولا نينانٍ، مع أن النينان جمع نون، وهو الحوت، وهذا ما أراده الشاعر، وما من شك في أنها كانت لغة متداولة على الأقل بين بني عقيل، لأن رواة اللغة فاتهم غير قليل مما كان متداولاً بين العرب من خطابات خاصة وعامة،ولا أدلّ على ذلك من وجود وورود هذه الصيغة مفردًا أو جمعًا في معاجم عربية كالقاموس واللسان وغيرهما.

كان بشار من الشعراء المطبوعين لا يصدر إلا عن سليقة لغوية، والمطبوع لا يؤاخذ في لغة أمه الطبيعية، وإلا رُصِدَتْ مآخِذُ في كل المستويات اللغوية على شعراء فطاحل جاهليين ومخضرمين وإسلاميين، ومن ثم نعود إلى الصفر ونعيد النظر فيما استشهد به الرواة والنحاة فيما قعّدوا ومهّدوا لنا من قواعد لا يكاد الباطل يأتي من بين يديها ولا من خلفها.

**التعصب للقديم على الجديد**

لا نريد أن نخوض في هذا الأمر أكثر مما ألمحنا دلالة على ضياع تراث لساني بفعل مزاج بصري تارة، وموالاة سياسية تارة أخرى وكانت اللغة العربية التاريخية هي الخاسر الأكبر، وعلى النحاة العرب ألا يستمروا في تحنيط العربية، وأن يجعلوا حدّا رجعيا لتلك الأوامر والنواهي البصرية التقليدية، وأن يفتحوا أفاقا أوسع لقبول نصوص خارج قرن ونصف بعد الإسلام، لأنه من السذاجة والغرابة جميعا أن يظل مجحورا علينا لسانيا، ومن هنا يجب أن نفتح المجال أمام نصوص تراثية تشمل بشارًا والطَائِيَّيْنِ والمتنبي ومن كان في قاماتهم إلى غاية سقوط بغداد وزوال ملك العباسيين.

قلت ما قلت، وهو قول لن يرضي المتعصبين، لأن اللسانيات العربية تبع للمتكلمين بخلاف متكلمين فرنسيين من شعراء وأدباء أنهم تبعٌ لنحاتهم الفرنسيين، لكن نحاتنا المتأخرين الذين وُجِدُوا خارج فترة الاحتجاج اللغوي غَذَوا يُخْضِعون إبداعات المتكلمين إليهم " قل...لا تقل"، فحجروا على العربية في بوتقة مغلقة وقفا على عصر دون عصر، ومتكلم معين دون متكلم آخر، حتى ولو كان ملحقًا في عربيته سمّوًا وسموقاً وفصاحة وبلاغة بمن سبقه داخل فترة الاحتجاج التي لا تخلو من وهم حتى ولو كنّا مستيقنين هدفهم الخالص في الحفاظ على عربية نقية من الفوضى والتهجين حتى تكون في مستوى تفسير وفهم كتاب الله، وتهيئة قواعد لسانية بأساليب ونماذج بنيوية مثالية وكاملة لا مجال مفتوح لأن يعبث بها كل من دبَّ وهب ممن غلب عليه الضعف والصنعة والتكلف، ومثالا واحدًا أو مثالين فقط على ما نحن فيه أن ابن الأعرابي كان يقول :" إنما أشعار هؤلاء المحدثين – مثل أبي نواس وغيره- مثل الرّيْحَان يُشَمّ يوما ويذوي فيُرمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا".5

وفي رواية أخرى أن أحدا قال:" كنا عند ابن الأعرابي، فأنشده رجل شعرا لأبي نواس أحسن فيه، فسكت. فقال له الرجل: " أما هذا من أحسن الشعر؟ قال: فقال: " بلى، ولكن القديم أحب إليّ".6

لم يشفع لأبي نواس ( 136-195هـ) اختلافه إلى أبي زيد الأنصاري ( 215هـ) ونقل الغريب عنه، ولا حفظه عن أبي عبيدة ( 110-209هـ) ما حفظ من كلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ونظره في كتاب سيبويه، كما أنه لم يشفع له قول الجاحظ في وضعه:" ما رأيت رجلا ألم باللغة من أبي نواس، ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة للاستكراه"7

بل لم يشفع له موسوعة العرب أبو عبيدة:" كان أبو نواس للمحدثين، كأمرئ القيس للمتقدمين".8

**موقف ابن السكيت**

وقال أبو يوسف يعقوب بن السكيت ( 244هـ) لما سئل عما يختار من رواية الشعر، فقال للسائل: " إذا رَوَيْتَ من أشعار الجاهليين فلا مرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق، ومن المحدثين فلأبي نواس، فحسبك".9

**موقف ابن جني**

وكان ابن جني (392هـ) يبرر ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر بقوله:" علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلاف والفساد والخطل، ولو عُلِم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك أيضا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتنا وترك تلقّي مَايَرِدُ عليها".10

**موقف أبي عمرو**

أيا كان الأمر، فإن لسانيينا العرب القدماء كانوا يملكون زادا لغويا ثريا يغنيهم عن الاحتجاج بما هو أقدم فأقدم، وهذا ما يَنْسَحِب مثلا على عالم نحرير، ولساني موسوعي، وقارئ ورع،...إنه أبو عمرو بن العلاء(154هـ) الذي كانت كتبه مَلأ بيت حتى السقف، ولما تقرأ( تنسّك) في آخر أيامه أحرقها، هذا الرجل كان يقول عن نفسه: " ولولا أنْ ليس لي أنْ أقرأ إلا بما قرئ لقرأت بكذا، وكذا، وذكر حروفا".11

وهذا ما أكده عنه ابن الأعرابي تلميذه الذي كان يقول إنه جلس إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج، فما سمعه يحتج ببيت إسلامي قط، رغم أنه كان يحفظ هذه الأشعار ويرددها ويتذوقها فنيا، ولكنه لم يكن يستأنس بها لغويا، بما في ذلك أشعار الثالوث الأموي الرهيب.

**فساد العربية خارج بؤرتها الطبيعية**

كم كنا سعداء لو أن اللغة العربية انتشرت خارج بؤرتها الأصلية في الربوع التي استقرت فيها بعد قبل وضع قواعدها.

ومع ذلك، فإن خللا ما كان يحدث خلال عملية انتشار هذه اللغة خارج ديارها، فضلا عما حدث بعد ذلك ولا يزال يحدث حتى الآن، ولا يخفى على المختصين والمطلعين جزء كبير من تلك الخلل، وأبرزها ذلك التفاوت الكبير بين طبيعة كل من المتجذر في أصل تلك اللغة التي كسبها ولقنها لا شعوريا وبين ذلك المتلقي الغريب عن جبلتها ودقائق أسرار خطابها الأدائي الطلق في كل حقل من حقولها، وجنس من أجناسها.

ومما لا يحتاج عندنا إلى وقوف طويل ولا إلى كلام مستفيض أن اللغة العربية فسدت سليقتها وتباينت سلامة تراكيبها في أوقات متقاربة وفي بؤر متنائية، وكان هذا الفساد يعظم امتدادا ويزيد اتساعا كلما كانت تطرد انتشارا وهيمنة، فأسرع إليها الوهن وغزاها اللحن وسرى في جبلتها الطبيعية البريئة الجميلة التكلف والتعسف والفساد في كل مكون من مكوناتها وقاعدة من قواعدها.

تناءت العربية عن موقعها الأصيل واضطر ناشروها إلى فبركة تعبيرات لغوية ميسرة قصد تبليغ الرسالة التي يحملون، فبسّطوا المحصولات الصوتية، وضحت الفصحى بالفارق بين الأجناس النحوية، ومن ثم تعددت مستويات التبليغ وتشعبت لا يعلم اليوم عَدَدَهَا أحدٌ من الدارسين.

**وباء العربية في المدينة**

ولعلَّنا لا نكون مغالين إذا قلنا إن هذا الفساد السليقي في جسم اللغة العربية شرع يسري مسرى وباء لا نَمَطيَ منذ عهد مبكر حتى في بؤرتها الأصلية، فهذا الأصمعي وهو العالم الورع الصادق، يشير إلى أنه أقام بالمدينة المنورة زمانا ما رأى بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة، وأنه لا يعلم بها إماما في العربية، بل ذكر أن اللحن في عوامهم فاش وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب.

**وباء العربية في صقلية**

ولربما يعد ابن مكي الصقلي(501هـ) أفضل واحد، قبل ابن خلدون،مِمَّنْ حاول تشخيص هذا الوهن اللساني في اللغة العربية من خلال تركيزه على جزيرته:" فلما تمت الحجة، ووضحت المحجة هجم الفساد على اللسان، وخالطت الإساءة الإحسان، ودُخِلَتْ لغةُ العرب، فلم تزل كل يوم تنهدم أركانها، وتموت فرسانها حتى استبيح حريمها وهُجِّن صميمها وعفت آثارها، وطفِئت أنوارها، وصار كثير من الناس يخطئون وهم يحسبون أنهم مصيبون، وكثير من العامة يصيبون وهم لا يشعرون فربما سخر المخطئ من المصيب..."12

**ظواهر ركود التهيئة اللغوية في العربية**

ومما هو محزن أن النحويين العرب القدماء تركوا جملة من العناصر النحوية ترددوا إزاءها كثير التردد في تهيئتها، مثلما تغاضوا عن عناصر لسانية أخرى لا تقل أهمية عن الاشتقاق والقياس في تطوير اللغة العربية وجعلها تواكب عصرها.

وما سمي عادة بالضروريات الشعرية التي ألفت فيها مطولات ومجلدات لم يكن إلا لغة عربية يتعاطاها العرب في نثرهم وشعرهم وحكمهم وأمثالهم، ولكن المتأخرين وهم يهيئون قواعد اللغة العربية لم يجدوا مدونات أدبية غير الشعر المقيد عموديا مما جعل هؤلاء يتأولون على العربية ويرفضون نسبة كبيرة من قواعدها وأنظمتها التي كانت تعد في غاية الدقة والشفافية الأمر الذي جعل قواعد اللغة العربية تظل قواعد جافة جامدة لا تنمو ولا تتحرك ولا تتطور، فقفل باب الاجتهاد فيها، وكل من ثار في وجه المعياربين القدماء منهم والمحدثين عَدُّوه نحويا أو لغويا زنديقا ضالا.

ولا يقصد هنا بتطور النحو العربي رفع المنصوب ونصب المرفوع وتذكير المؤنث وتأنيث المذكر، ولكن يقصد بهذا إمكان تماشي النحو مع العربية ونموُّه مع نموها، لأن النحو شيء واللغة شيء ثانٍ.

أجل إن العربية التي وصلتنا لا تمثل كل القواعد التي لم تصلنا ولو سمع العجاج اليوم يقول:

" ياليت أيام الصبا رواجعا".13

لا تُّهم في عربيته التي تختلف مستوى عن عربتة غيره.

ولو سمعك اليوم سامع لا يعرف من العربية وقواعدها ما تعلمه من قواعد مدرسية تقول : " بقيت ورضيت وخشيت وفنيت...وما يتصرف منها في باقي الضمائر لنعتوك بالجهل وتكسير قاعدة من قواعد الصرف العربي. ولو قلت له إن المستوغر بن ربيعة وهو شاعر جاهلي قديم من تميم قال:14

هل مابقا إلا كما قد فاتنا يوم يَكُرُّ وليلةٌ تحدونا

ومثله زهير:15

تربع صارة حتى إذا ما فنا الدُّحْلانُ عنه والإضاءُ.

وأن هذه القاعدة اللغوية قاعدة عربية على نطاق جغرافي واسع ...لما وجدت لديه آذانا صاغية ورماك بالشذوذ والعدول، والشاذ في أحسن الحالات يحفظ ولا يقاس عليه : ولماذا أحفظه؟

وقديم شكا شيخ من الكوفة همه هذا إلى خلف الأحمر: أما عجبت من قول الشاعر:" أنبت قَيْصُومًا وجَثجَاثا" فاُحتمل له، وقلت أنا: " أنبت إجاصا وتفاحا ".

فلم يُحْتَمَلْ لي، ولكن أحدًا لم يُشْكِهِ( أي لم يُزِل شكايته).

بل علق ابن قتيبة:" وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق مالم يطلقوا"16

وحتى الآن لم يتفق علماء العربية على جمع المؤنث السالم، أهو دال على جمع قلة أم كثرة؟ وتعرفون قصة الخنساء مع حسان

لنا الجفنات الغُرّ يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقال لنا علماء العربية فيما يقولون: إن العروس يستوي فيه الذكر والأنثى ماداما في إعراسها، لكن جمع الرجل عُرسُ، بينما جمع المرأة عرائس، بيد أن في العربية ألفاظا غير قليلة من الجنس نفسه، ولكن لا فرق في جمعها بين مذكرها ومؤنثها مثال ذلك: فرس ثلاثة أفراس وثلاث أفراس.

وقالوا لنا: إن جمع فِعال بكسر الفاء على أَفْعِلة ومن مختص بالمذكر مثل لسان وألسنة، أي من ذكر اللسان جمعه على أفعلة، أنثه جمعه على أَفْعُلٍ ألسُن..

لكن: أليست كلمة سلاح يستوي فيها الجنسان وهي على وزن فعال مثل اللسان، ومع ذلك فإن مادّل منها على مؤنث جُمِع جمع مؤنث سالما ( سلاحات) وليست على وزن أفعل؟

ويقولون لنا: إن القربة التي يستقى فيها الماء جمعها في القلة قِرْبات بتسكين العين أو فتحها أو كسرها، وكل ما كان على فِعْله بينما جمعها في الكثرة ، لكن كيف نفرق بين جمع الكثرة فيمن يعقل والجمع نفسه فيما لا يعقل؟ وما جدوى وجود المؤنث السالم إذا كان لا يزيد على العشر؟ وهل الجمع المؤنث السالم في قوله تعالى: "وآتوا النساء صدقاتهن". لا يعني إلا عشرًا منهن؟

ومما زعمو لنا في باب فعيل إذا كان اسما لمذكر يجمع كجمع رغيف وأرغفة ورُغْفَانٍ، لكننا نجمع كلمة " سَرِيّ" وهي فعيل على سُراة فقط، وما هو شائع أن جمع فعيلة فعائل ( ضريبة ضرائب) بينما خميلة على خميل.

ويقولون : إن فعيلا إذا كان صفة وهو بمعنى مفعول جمع باتفاق بين العرب على فَعْلَى مثل قَتْلَى وصرعى وهلكى... وأُلْحِقَ به أنوك ونوكى وأحمق وحمقى لما في ذلك من عيب، لكننا هل نجمع كلمة سقيم وهي فعيل بمعنى مفعول على فعلى فنقول: سقمى؟ بل سقام زاعمين لنا أنهم ذهبوا في جمعه على فاعل لا مفعول.

وفي الوقت الذي يقول سيبويه: الشجراء واحد وجمع ومثلها القصباء والحلفاء، والطرفاء.

يقول غيره إن مفرد كل ما تقدم فَعَلَة ( شجرة- حلقة-طرفة- قصبة... وهي لغتنا)

وقالوا لنا إن الأفعال اللازمة تعدى بالهمزة والتضعيف غير أن هناك أفعالا غير قليلة وهي لازمة قد تعدّى فقط بالحركة...إلخ.

**لماذا تعطل الفكر اللغوي في العربية؟**

إن النهج القواعدي العربي القديم بقدر ما كان مؤسسا على الاستنباط الداخلي فإنه ظل يسهم بثنائية مطلقة:

قول جيد/قول رديء

لغة مقبولة/لغة مرفوضة

مطرد/شاد

يحفظ ويستعمل/يحفظ سماعا ولايقاس عليه...إلخ

لم تكن تلك القواعد تهدف إلى عرض المبادئ شبه العامة التي تخضع لها كل اللغات، ولم تكلف نفسها العناء لإعطائها فكرة تعليلية خارج اللغة العربية مجتزئةً بأحكام قيمية صنفت في ضوئها ما يقبل منها مما يرفض انطلاقا من مدونات لغوية حددت سلفا جغرافيا ونسبيا وزمنيا تحديدا معياريا صارما، وهذا المنهج على هذا النحو أسهم بشكل ما في تعطيل الفكر اللغوي وتنويره وعمل على شلّ الاجتهاد...

وليس العيب ملصقا باللغويين الرواد ومن خلفهم إلى غاية ق3 هـ وحتى القرن 5هـ، بل باللغويين المتأخرين الذين تاهوا بين اجتهاداتهم الشخصية وما ورثوه من صرح لغوي صَلْد لم يكونوا في مستوى نهاية ما وصل إليهم، وفي أحسن الحالات اِقتنعوا باجتراره، وليتهم استوعبوه أيضا اِستيعابا كليًا إلا قلة من النبهاء الذين ظلوا لا يكادون يتجاوزون ما ورثوه عن السلف، حتى وإن كان ابن خلدون يشيد كثيرا بجمال الدين بن هشام في كتابه " المغني في الإعراب".

**لا أمامية بدون خلفية**

و لذا، فإني أرى من الإجحاف ونكران الذات أن يتحدث أحدنا عن أي ازدهار للمصطلح في مجال علم اللغة الحديث دون التعريج على ذلك الازدهار الهائل في اللسانيات العربية القديمة، حتى ولو كانت هذه الورقة لا تسمح لنا مطلقا بذلك، لأن ازدهار أي مصطلح لساني في لسانياتنا العربية الحديثة ملزم في حداثته أن يستأنس بما سبقه من مصطلحات أصيلة تكون أساساً لأي انطلاقة تبشيرية بشروق لسانيات عربية حديثة تماشياً مع ما ينسجم من نظريات لسانية غربية رهيبة.

نحن نعلم أنّ اللسانيين العرب القدماء حلّوا مشاكلهم اللغوية العامة إلى حدّ التُّخمة، ومازلنا نلاحظ إلى يومنا أن ما ورد من مصطلحات لسانية عربية كان يتشارك دلالياً وصوتياً مع المدلول اللساني المشار به إلى ظاهرة تنظيمية في قواعد اللغة العربية، مثال ذلك النص الدؤلي الأول على كاتبه، وما ذُكِر عن الخليل مثلاً بأن مصطلح النعت لا يكون إلا فيما هو محمود، بينما الوصف قد يكون فيما هو محمود (مدح) وفي غيره (ذمّ)، بمعنى أن أصالة المصطلح تنبثق من أصالة اصطلاحه، سواء تعلّق الأمر بالقواعد ورموزها أم بالشرع أم بالعروض،... لأن الاصطلاح متعلق بالعموم بخلاف المصطلح المقيد بالمخصوص، أي كل مصطلح اصطلاح، وليس كل اصطلاح مصطلحاً.

وربما لا يقبل أحد منا قبولاً لا يشوبه شك أو تردّد، إذا قلنا إن النص الدؤلي الذي يعدّ أول لبنة من اللّبنات الأولى لازدهار اللغة العربية في مجال علمها اللغوي ظل متداولاً إلى عهد متأخر، وهذا الأخفش (الأوسط) المتوفى سنة 215هـ ، وهو من ورثة علم الخليل وسيبويه يقول في مستهل كتابه العروضي (كتاب القوافي،ص؛ 59): " ليس من حروف العرب ولا غيرها شيء يخلو من أن يكون مضموماً أو مكسوراً أو مفتوحاً أو موقوفاً ".

غير أن الإشارة أعلاه لا تعني أن اللغة العلمية العربية ظلت وقفا على ما تقدمها من إبداعات لغوية تحليلية، بل لم يكونوا يلتزمون في مواضع، وفي كل حال، بالتراث اللساني الموروث، الأمر الذي جعل علم اللسان العربي القديم يزدهر ازدهاراً مشرقا، ومما جعل مصطلحات فيه تتعدّد حول الشيء نفسه، وهذا حتى على مستوى مدرسة لغوية واحدة، كالذي تقف عليه لدى سيبويه الذي كثيراً ما كان ينفرد ببعض المصطلحات، ومثالاً على ذلك، فإن ما يسمّى "الضمير" عند غيره سواء كان بارزاً أم مستتراً، يسمّيه هو "الإضمار" مهما كان نوعه وموقعه، وما يسمّى عند سواه "اسم الآلة" على مفعل (بكسر الميم) يسميه الرجل "اسم ما عالجت به" ويسمّي اسم الزمان "اسم الحين"، و"اسم المكان" "اسم الموضع" ويسمّي الإضراب بـ "بل" الانقطاع، ويسمي الإمالة ب "الإنجاح"،...الخ

ولذلك حين نقول بتلمذة سيبويه على الخليل الجليل، فهذا لا يعني أن التلميذ كان يقلد أستاذه في كل شيء، وأن ما جاء في كتابه ما هو إلا توثيق حرفي آمن لما تفوّه به أستاذه، والأمر نفسه في مستويات لغوية أخرى.

وبكلمة واحدة، فإن علماء اللغة العرب القدماء خلال عصور الاختراع والتنوير، قد عملوا مجتمعين على ازدهار اللغة العربية وإنعاشها وإثرائها بألوف من المواليد اللغوية فيها دون أن تجد آثاراً لمصطلحات أجنبية فيها، حتى ولو كانت معرّبة أو مترجمة.

**لماذا تعطل الفكر اللغوي حديثا في العربية ؟**

لكن هل ظل الأمر نفسه بخصوص مجال علم اللغة الحديث الذي تعاطته اللسانيات العربية طوعاً أو كرهاً علماً بأن أية لغة لا تزدهر ازدهاراً مشروعاً خارج نفسها؟.

لكن لماذا تعطل الفكر اللغوي في العربية؟ مما أحسبه أن المنهج القواعدي العربي القديم بقدر ما كان مؤسسا على الاستنباط الداخلي، فإنه ظل يتسم بثنائية مطلقة، فكان كل قول "جيد" يقابله قول "رديء" وكل لغة "مقبولة" تقابلها لغة "مرفوضة" وكل مُرْسلة لغوية "محمودة" توازيها مرسلة لغوية "مذمومة"،... وفضلاً عن هذا، فإن هذه القواعد أو "النظريات اللسانية" لم تكن تهدف إلى عرض المبادئ شبه عامة يمكن أن تخضع وتنساق له كل أو معظم اللغات، ولم تُكلّف نفسها العناء لإعطائها فكرة تحليلية خارج اللغة العربية... وهذا المنهج اللساني العربي على هذا النحو شاخ وأُتْخِم وأسهم بشكل ما في تعطيل الفكر اللغوي العربي وتنويره، كما تسبب في شلّ الاجتهاد والانفتاح على الآخر، وما وُجد هنا وهناك من مدارس لغوية عربية ظلّ يدور في فلك واحد بناء على عوامل خارجية تارة، وأفكار تأملية ميتافيزيقية طوراً،...

غير أن العيب ليس ملصقا باللغويين الروّاد ومن خَلَفَهُم إلى غاية القرن الثالث وحتى القرن الخامس الهجريّيْن، بل بالمتأخرين الذين تاهوا أو كادوا يتيهون بين اجتهادات شخصية لم تكن صائبة في كل حال، وبين ما ورثوا من دراسات لغوية صلدة كانوا دون مستواها، لانطلاقهم من ثقافة النقل والاجترَار، لا من ثقافة العقل والابتكار، بمعنى أن العَلْمغيِّين (علماء اللغة) العرب المتأخرين لم يكلّفوا أنفسهم فصل الدراسات اللّغوية التي وصلت أو جها قبلهم إلى حقولها المستقلّة تبعاً لتجانس العناصر أو الظواهر اللسانية، ولم يميّزوا ما يدخل في حقل مشترك مما يدخل في حقل ذي عناصر لا تتجاوز نَفْسَها، وهكذا ظلوا يلهجون مثلاً بمسألة الكلام، والكلمة، والكلِم، والقول، واللفظة، والمفيد وغير المفيد،... ناسين أو غير مدركين أن اللغة التي نتكلّمها لا نملك إزاءها انطباعاً بأنها تتغير مدة حياة كل متكلم فيها أو الأجيال المتزامنة لا تعبر بطرائق تعبير متشاكلة، مع أن الوقائع الثابتة التي استقيناها من اللسانيات الحديثة أثبتت مما لا يدع مجالاً للشك أن لغتنا المتواصل بها تتطور وتتغير في كل لحظة بواسطة وحدات صوتية وكلمات و بناءات جديدة، يحدث هذا دون أن يكون للمتكلم في لغته إحساس فوري بأن ما يتواصل به في فترة لاحقة لا يبقى متطابقا لنفسه كما كان من ذي قبل.

**غياب لسانيات عربية حديثة**

وما أشير إليه أعلاه يندرج في غياب لسانيات عربية حديثة حتى يتهيأ للغة العربية أن تواكب ازدهارها المطّرد دون أن تتخلف عن الركب اللساني في دول ما تقدّمت إلاّ بتقدّم لغاتها كأداة بحث وشرح وتعليم واتصال وتأليف ونشر، لأن لكل علم مصطلحاته، وكلما كثرت هذه المصطلحات وتنوعت قابلها تطور وتنوع وازدهار في هذه اللغة أو تلك، باعتبار اللغة أي لغة لا تُفْرَضُ فرضا إدارياُ إلا بعلومها، فاللغة العربية القديمة أقبل عليها القوم من كل الأجناس إقبالا جارفا بفضل الإسلام، وبفضل علومها وما تُرجم إليها من فلسفة وعلوم الإغريق، وكان المصطلح العربي الأصيل يخضع لسنة النشوء و الاصطفاء والارتقاء، الأمر الذي جعل لغة العلم عند العرب تستقر ولا تختلف في مشرقها عن مغربها،... ولك أن تقف على هذا عند كل من الخوارزمي في مفاتيح العلوم ، وعلي بن محمد بن علي الجرحاني في "تعريفاته" وغيرهما،...لكن لما ركد البحث العلمي عند العرب ركدت اللغة العربية لتنتقل من لغة مزدهرة إلى لغة ذات ألفاظ ركيكة معقّدة، ولمّا جاء المدّ الجديد من أجيالها خلال عصر النهضة الحديثة لم يكونوا على اطّلاع واسع بالوعاء الأصيل لهذه اللغة ومصطلحاتها القديمة التي كان بإمكانهم استثمارها و الاستئْناس بهامما ولّد تصدّعا لغوياُ في سيرورة العربية أحدث فجوات عميقة وشرخا واسعاُ في الوصل بين حاضر لساني كان حتما عليه أن يقوم على ما تقدمه من مصطلحات قديمة صالحة لتوظيفها في شتّى المجالات الثقافية والإدارية والعلميّة والاجتماعية وحتى اللسانية بوجه أخص.

وحين ظهر أول كتاب لساني منذ قرن كامل لدي سوسور قلب عالم الدرس اللغوي رأسا على عقب، لم يجد الغربيون صعوبات كبيرة في هضم وإدراك ما ورد في هذا الكتاب، كما أنهم وعلى اختلاف لغاتهم، لم يشعروا بنقص ولا ضعف للتعبير لسانياُ بلغتهم كما ورد في هذا المؤلف من نظريات وافتراضات لسانية ساعدت لغاتهم على التطور العلمي في مجال علم اللغة الحديث، وذلك بفضل أن اللّسانيات التاريخية كانت قد ظهرت لديهم، وبالضبط في ألمانيا، قبل قرن كامل(1816) على تاريخ طبع دروس دي سوسور، وهذا في الوقت الذي كان فيه عالمنا العربي يغط في تخلف لساني محلياً وعالمياً.

**أزمة ازدهار لغوي أم مصطلحي ؟**

ومما نراه أقرب إلى الاقتناع منه إلى التردد أن اللغة العربية يمكن أن تزدهر في مجال العلْمَغة (علم اللغة) الحديثة داخل نفسها وفي محيطها قبل أن تظفر بهذا الازدهار نفسه من خارجها، فهي ترخّص لعَلْمغِيِّينا( علماء لغتنا) المحدثين ما لا تكاد ترخّص به لغة حية معاصرة لها، من اشتقاق، وقياس، ونحت، وتعريب، ونسْخ، ومصادر صناعية قياسية،... لكن ما يقف حجرة عثرة في سبيل ازدهار اللغة العربية لا يكمن في فقرها المدقع في مجال المصطلحات الحديثة، ومنها العلْمغة، بقدر ما يكمن أيضا في محلية المصطلح المقترح من مجامعها اللغوية وعلماء اللسانيات العرب، وقلة حظه من الانتشار، وما لا يُنتَشرُ لا يُستعْمَل، وما لا يُسْتعمَل وُلِد ميّتاً.

وعلاوة على ما أشير إليه آنفا، فإن جل ما كان ذا حظوة من الانتشار والاستعمال من مصطلحات لسانية جديدة في اللغة العربية، لا يلقى اجماعا من بلد عربي إلى بلد عربي آخر، بل لا يُتّفَق فيه أحيانا بين باحث عَلْمغيّ (عالم لغة) وباحث آخر على مستوى بلد عربي واحد: أين هذا مما كان للعرب في عصرهم المزدهر من لغة علميّة موحّدة من البصرة والكوفة إلى المغرب والأندلس؟

ولعل ما زاد الطين بلّةً ظاهرة غريبة تتمثل في ضعف الصلة الوثقى بين لغة الأدب ولغة العلم، ومنها لغة علم اللغة الحديث عندنا، وكأن الأمر يتعلق بلغات داخل لغة واحدة لا بمستويات لغوية وحسيّة، في وقت نعلم فيه أن ليس ثمت إشراق أدبي إلا ويكون متفاعلاً ومتعانقاً بإشراق علمي.

**مفارقات في لسانياتنا العربية الحديثة**

وإذا أردت أن تكون فضولياً أكثر فأكثر فارجع البصر إلى مباحثنا اللسانية الجديدة لتقف على شروخ لسانية متباينة بين مبحث هنا ومبحث هناك، فطلبتنا الذين أنجزوا رسائلهم وأطروحاتهم الأكاديمية في عواصم غربية أسهموا في النهوض بلغات تلك العواصم، لإنجازهم أعمالهم بتلك اللغات الأجنبية، ومن ثم، فإن بلادهم الأصلية لم تُفدْ منهم كثيراً، بل على العكس من ذلك روّجوا مصطلحات لسانية وأدبية ونقدية وعلمية وتقنولوجية... على حساب اللغة الأصل لبلدهم، وهذه الظاهرة زادت المسافة بوناً في إمكان توحيد المصطلح أو تقريبه على الأقل، باعتبار المصطلح العلمي والثقافي كاد يصبح مؤدْلجاً، نظراً لتشعّب المدارس اللسانية وتباين نهجها في الفضاء الغربي والأنجلوساكسوني نفسها، مما انعكس سلبا على ازدهار المصطلح الجديد في اللغة العربية التي تطورت تطوراً مذهلاً على فترات متلاحقة لكنها وجيزة، بفضل استغلالهم ما جدّ من ابتكارات في مجالات علمية متوازية، من الصوت إلى الكلمة، إلى الجملة، إلى النص، فَعَلْمنوا اللغة عَلْمَنة، وكادوا يُعَلْمِنون الأجناس الأدبية لولا أنّ الأدب محصّن بالعاطفة والوجدان والتجريد والخيال.

ومع ذلك، لم تقف اللسانيات العربية "الحديثة" مشدوهة، بل حاولت وحاولت أن تواكب ما أهل من نظريات لسانية غربية عبر المؤلفات المباشرة أو الترجمة أو البعثات،... لكن هضمها كان، ولا يزال إلى يومنا، يستدعي الفهم والاستيعاب ثم التبليغ، وهذا ما لم يَحْدث بَعْدُ، لأن اللسانيات الغربية أضحت توظف أدوات علمية صرفاً، وليس فقط الوسائل السمعية البصرية والمخابر التعليمية.

بيد أنّ ما أُلْمِح إليه آنفاً لا يقف أمام إرادة قوية صادقة سداً منيعاً أمام اقتحام اللسانيات الغربية واستلال ما أمكن استلاله منها من معطيات يمكن أن تُثري اللغة العربية الحديثة بمواليد لغوية جديدة دون أن تمس أو تتعارض مع الآليات الأصيلة لتوْليد ألوف من الكلمات الجديدة في اللغة العربية، وهذه المواليد اللغوية ستشمل أيضا ميادين جوارية أخرى تستعمل اللغة العربية، وليس فقط مجال علم اللغة الحديث.

**من روافد ازدهار اللسانيات الغربية**

ومما لاَ ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن اللغات الغربية في مجال علم اللغة الحديث ما كانت لتزدهر ذلك الازدهار، وتُثْرى ذلك الإثْراء لولا الصلات اللغوية التاريخية الحميمية بينها جميعا، ولم تزدهر صدفة ولا ضربة حظ، فالإنجليزية لئن لم تكن لاتينية، فإنها تتلاقى معها في أمها الآرية، وبيْن هذه اللغات مجتمعةً ألوف مشتركة من الكلمات، حتى دي سوسور الذي كان تكوينه ألمانياً في علم اللغة، وينتمي إلى بلد ذي ثنائية لغوية، لم يتَردّد في دروسه التي وصلتنا أن كان يستعمل معظم اللغات الغربية بما في ذلك اللاتينية، مما انعكس بصورة إيجابية على ازدهار اللغات الغربية الحديثة في مجال علم اللغة الحديث، ولكن إذا عرفنا أن اللغة الإنجليزية الحديثة اقتبست ما بين 55-75 في المائة من مجموع مفرداتها من اللغتين الفرنسية واللاتينية وغيرهما من اللغات الرومانية (17) ، علمنا لماذا ازدهرت اللغة الغربية في مجال علم اللغة الحديث، فمصطلحاتها مشتركة بينها بنسبة تفوق تصورنا، وهذا يساعد التبادل المعرفي والعلمي بينها دون عوائق لغوية كبيرة، فضلا عمّا ذكر كل واحدة منها تأخذ عن الأخرى دون اضطرارها للترجمة دائما أو الرجوع للوعاء المعجمي الأصيل للغتها في كل مرة.

غير أن ما أُلْمِعِ إليه أعلاه لا ينسحب على لغة كالعربية، وإلا فماذا تأخذ هذه اللغة من لغات محلية يتواصل بها متكلمون في فضائها العربي من المحيط إلى الخليج؟ وهذا بخلاف اللغات الهندية الأوروبية، ولاسيما اللغات الجرمانية واللاتينية والسلافية المنبثقة كلها على الأرجح، من السنسكريتية، بمعنى أن من يتكلم الفرنسية لا يتعذر عليه كثيرا أن يفهم كمية هائلة من العناصر اللسانية المعبّر بها في لغة لاتينية أو حتى جرمانية، ونتيجة لهذا، فإن أي متعلم فرنسي يفهم – مثلاً- بكل سلاسة العناصر اللسانية المتداولة في المدرسة الأنجلوسكسونية:

ABLATIVE( مفعول فيه أو عنه أو منه)/ABSTRACT(مجرّد)/ ACCENT( نبر) / ACCOMODATION (ملاءمة) / ACQUISITION( اكتساب لغوي) / ANALYSIS (تحليل) /ANASTROPHE (تقديم وتأخير) /ARTICULATION (نطق)/ BILABIAL( شفوي)/ CACOLOGY( لحن في الكلام) CACOPHONIE/(تنافر صوتي) CATEGORY/ (فصيلة) / CEREBRAL(صوت ارتدادي)/ DEMACRATIVE FUNCTION(وظيفة تحديدية)...الخ حتى إنك لو قابلت قاموساً لسانياً إنجليزياً بقاموس لساني فرنسي، لكدت تستغني بواحد منهما إذا كنت تفرق بين نطق الصوامت والصوائت في كلتا اللغتين، بل يمكنك فهم معظم المصطلحات اللسانية الواردة في أحد القاموسين دونما حاجة كبيرة إلى معرفة كيفية التّطور الصوتي إذا كنت تتقن إحداهما.

هذه الميزة التي تحظى بها اللغات الأوروبية لا تحظى بها اللغة العربية الحديثة خاصة أمام رِدّة لغوية تعليمية وأكاديمية في مؤسسات، بما فيها بعض الجامعات، كان يفترض فيها أن تنمّي هذه اللغة لتجعلها تواكب التحدّيات المعرفية العالمية.

وإذاً، فأنى للُغةٍ شبه يتيمة أن تزدهر في غياب ممارسات عربية، وإن وجدت فهي غير بريئة من اضطرابات وتضاربات وفوضى شاملة في خلق المصطلح الذي لا يلقى إجماعاً عربياً، وفي ظل تولية باحثينا الشباب أهواءهم وعقولهم شطر كل ما يولد من مواليد لغوية جاهزة في لغات علمية أخرى كثيرة أكثر من تركيزهم على وصل الأصالة بالمعاصرة، فضلاً عن سقامة فهم العناصر اللسانية الغربية الحديثة الجديدة لكونهم يَعْدَمون ثقافة لسانية عالمية هي وليدة مائتي سنة على الأقل(1816-2016)، ونابعة من لسانيين عباقرة كبار، وعائدة إلى مدارس لسانية متباينة في طروحاتها التنظيرية وحتى مصطلحاتها؟

وبناء على التساؤل السابق، فهل يمكن القول إن اللغة العربية الحديثة في مختلف مجالات البحث العلمي والتطور التكنولوجي، بما في ذلك اللسانيات المعاصرة التي أصبحت دراسة معاصرة للغة، في حاجة إلى البحث عن نفسها وفرض هويتها أكثر من القول عن ازدهارها؟

المحاضرة 2:

**إشكالية المصطلح اللّساني والترجمة**

**أ.د. عبد الجليل مرتاض**

## مصطلح أم مصطلحات

لعل أنسب عمل تركه أندري مارتيني مفصّلا وموضّحًا في اللسانيات السانتكسية والوظيفية كتابه الموسوم "عناصر اللسانيات العامة "Eléments de linguistique générale" الّذي تُرْجِم إلى العربية بأكثر من مترجم، إحدى هذه الترجمات لأحد الأساتذة السوريين من الألمانية، وليس من لغته الأصل، وهي ترجمة إنشائية بعيدة عن لبّ دقائق ما ورد في هذا الكتاب، حتى إنها لا تقول ما يقوله، ولعلّ من أسباب ذلك أن المترجم مختص في الأدب المقارن، ولا صلة له باللغويات قديمها ولا حديثها، ومما عجبت له أن هذه الترجمة مقدّم لها من اللّساني الجزائري المعروف بصرامته العلمية الحاج صالح عبد الرحمان.

وحَسبُنا ملاحظة على الترجمة المشار إليها أعلاه ما جاء في الترجمة الجزائرية "وتعدّد الترجمات ليس جديدًا، والّذي ينبغي أن نقوله بالنسبة لعملنا هو أن كتاب مارتني طبع أكثر من مرة، والّذي تنفرد به ترجمتنا هو الاعتماد على طبعة سنة 1980، وهي مزيدة ومنقّحة بالنظر لـ ط1970، بالإضافة إلى ذلك، نذكر سبَبَيْن رئيسيَّين (بالنسبة للترجمتين السابقتين)([[1]](#endnote-1)) جعلانا نقدم على العمل أولهما أن الأستاذ أحمد الحمو ترجم عن ترجمة كان يتقن الألمانية فاعتمد الترجمة الألمانية، ثانيهما أن الفصل الثاني من ترجمته لا يحتوي إلا على ست عشرة فقرة من بين تسع وثلاثين فقرة في الأصل؛ أي بفارق ثلاث وعشرين فقرة أو ما يعادل عشرين صفحة من الكتاب، أما الترجمة الثانية، فيغلب عليها إبقاء المصطلح الفرنسي، والأمثلة المأخوذة من الفرنسية"([[2]](#endnote-2)).

ومع عدم اطلاعي على ترجمة ريمون رزق الله، فإن ملاحظة الزبير سعدي على إبقائه المصطلح الفرنسيّ والأمثلة الفرنسية، كافية لتقنعنـي أن هذه الترجمة أفيد من هاتين الترجمتين، وخاصة بالنسبة للمصطلحات اللسانية المتفاوتة بشكل فاحش بين اللسانيين الفرنسيين أنفسهم، فكيف يعد ترجمتها إلى لغات أخرى لا تشترك أرومة معها؟ أما إبقاء الأمثلة باللغة الأصل، فهو الصواب بعينه، لكن يجب ترجمتها إلى اللغة الهدف في الوقت نفسه.

أيًا كان الأمر، فإن الترجمة الثالثة ليست بأفضل ولا أسوأ من الترجمتين اللتين سبقتاها، إذ أول خطأ نجده في العنصر الأول من عنوان الكتاب، حيث كتب "Elément" مفردًا، وهو مذكر، على الرغم من أن ترجمته رُسمَت جمعًا (مبادئ)، والواقع أن "مبادئ" لا صلة لها في الفرنسية ولا حتى الانجليزية بـ"Eléments" إلا إذا تعلق الأمر بمبادئ فيزيائية Eléments de Phisique وتُرسم في الفرنسية Elément وفي الانجليزية Elément (العنصر)، لأن العنوان الأصل مستوحى من عناصر مجموعة Eléments d’un ensemble، أي أن العناصر اللغوية المتناولة في الكتاب مشبّهة بعناصر مجموعة رياضية.

أما في جانب المصطلح، فإنه متباين مع ماهو متعارف عليه تقريبًا بين جل اللسانيين العرب المحدثين، إذ كيف يمكن لمتلقٍّ مطلع على المبادئ الأولى للسانيات أندري مارتني أن يُسيغ ترجمة Analyse en monèmes إلى "تحليل إلى كلمات"، وهو يعلم بداهة أن الكلمة شيء، والمونيمة التي هي أصغر وحدة دالّة شيء آخر؟ بل كل كلمة مونيمة، وليست كل مونيمة كلمة، وأنّى لك أن تقبل ترجمة Actualisation إلى اجتعال، وهي تعني بكل بساطة انتقال الشيء لطور الحقيقة كتأدية صوت أو إخراجه أو تحيين الشيء كجعله ينتقل من القوة إلى الفعل؟ وأنّى لك أن تهضم إطلاقه "الصّويتي" على ماهو فونيمي وفونولوجي: "Analyse Phonologique تحليل صوتي"، و"Phonème صوتي"؟، ولك أن تتأمّل جزءًا من هذه المصطلحات وتجيب بنفسك:

|  |  |
| --- | --- |
| مدرج الكلام  وضـع  كلمة اقترانية  عـمـاد  تنـاظر  كرييول  أوجية (وظيفة)  وظائف العناصر اللسانية  معجميّ  صـفي  علامة (تناظر)  الأمّ (لسان)  خطـاب  قـرائن  صيـغ  كلمـة  كلمة مكتفية  "نحـوي"  تصـريف  تصريفي- صوتي  قبيل (في تناظر)  جدولـي  اسم (فاعل/مفعول)  نسـق | 1) Chaîne parlée →.  2) Code →.  3) Conjoint (monème) →.  4) Copule →.  5) Corrélation →.  6) Créole →.  7) Culminative (Fonction) →.  8) Fonction (des éléments phoniques →.  9) Lexème →.  10) Linéarité (du langage) →.  11) Marque (de corrélation) →.  12) Maternelle (langue…) →.  13) Message →.  14) Modalité →.  15) Mode →.  16) Monème →.  17) Monème Autonome →.  18) Morphème →.  19) Morphologie →.  20) Morpho (pho) nologie →.  21) Ordre (dans une correlation) →.  22) Paradigmatique →.  23) Participe →..  24) Synthéme →.. |

والّذي يكاد يكون متفقًا عليه أو على الأقل مستأنسًا به أن المصطلحات اللسانية أعلاه متداولة بشكل واسع أو ضيق على النحو:

1- بدل مدرج الكلام، سلسلة الكلام أو التكلم أي تتابع الأصوات المتلفظ بها خطيًا: كـ/ت/ب، وزمنيًا.

2- بدل الوضع الّذي لا صلة له بما جاء، نقول: رمز الاتصال المتواضع عليه في إطار جماعة لغوية معينة، ولو استعمل بدله المواضعة بالمصطلح البَنْجَنِيِّ (نحت ابن جني)، لكان أليق وآنَسَ، وكنا اقترحنا "السّنن" ترجمة لـِ Code استيحاء من عنوان أول كتاب فقلغي (نَحتُ فقه اللغة) عربي لابن فارس.

3- مقابلة مونيم بكلمة أمر غير مقبول، لأن كل كلمة مونيم، وليس كل مونيم كلمة: فكلمة "سنستدرجهم" مؤلفة على الأقل من خمسة مونيمات، هل يجوز القول فيهـا إنها مؤلّفة من خمس كلمات؟ وConjoint تعنـي المتصل أو المقترن، فضلاً عن دلالات أخرى، والأنسب القول: مونيم مقترن.

4- نقول: Fonction Copulative (وظيفة الوصل أو الربط)، ومن ثم فـ: Copule منطقيًا ونحويًا تعني رابطة.

5- لا ندري من أين جاء "تناظر" تقابلاً Corrélations، إلا إذا استُوحيَ من "الارتباط المتبادل"، وإلا فإننا نقول:

|  |  |
| --- | --- |
| - ارتباط صوتي متبادل  - ارتباط دلالي متبادل | -Corrélation Phonétique  -Corrélation Sémantique |

أي Corrélation تناظر علاقة أو ارتباطًا، ولو قيل: "المضاهاة" بدل تناظر، لكان أقرب.

6- المعروف عن Créole أنه كل تواصل لغوي طبيعي هجين، كالعامية الجزائرية وخاصة وسط المغتربين في فرنسا:

- صباح الخير.

Comment t’allez-vous ? -

- الحمد لله.

- فَرَّاكْ ماشِي؟

- آ، رَنِي ماشِي لْبَالَة (La pelle) والفَاسْ

(انتبهِ! اذْهب على مَهل) Attention ! vas-y doucement -

7- هذا المصطلح يُقصَد به عادة وظيفتان: تزايدية، ونبرية أي: Fonction Culminative de l’accent، وهي من Culmination (بلوغ الأَوْج).

8- نلاحظ هنا أن المترجم ترجم Elément ترجمة سليمة، بينما ترجم عنوان كتابه "مبادئ..."؟

9- اضطربت قواميس المصطلحات اللسانية المزدوجة اضطرابا شديدا، ومعها المؤلفات اللسانية العربية الحديثة، ولا تكاد تجد مصدرًا يتلاقى مع مصدر آخر، منهم من يترجم Lexème إلى معجمي، كما نجد هنا، ومنهم من يسميها المفردة المجردة أو الوحدة الجذرية، ومنهم من يقول فيها: مفردة متمكنة، وآخر يطلق عليها المفردة، والمصطلح الّذي استأنست به ما وجدته في القاموس المزدوج العام للمرحوم الدكتور سهيل إدريس، حيث يسمي اللكسيم "المأصل" أو "جذر الكلمة" وأنا آخذ بالأول (المأصل)، وهو نعم الصواب في نظرنا.

10- لا أدري، من أين وردت "صفي" لتقابل Linéarité، إذ المتفق عليه أن Linéarité تعني بكل بساطة كل ماهو خطي تتابعي أو الترتيب التسلسلي للأصوات أو الكلمات، حين يؤدّي تغير إحداهما إلى تغير في الأخرى، يكون متناسبًا مع تغير الكمية الأولى، لأن الوحدات تتعاقب أو تخلف الواحدة منهن الأخرى، ولكن لا يمكن أن تكون متماثلة في آنٍ واحد في نفس النقطة للسلسلة الكلامية.

11- إذا كنا نطلق علامة على Marque، فبأي مصطلح نسمّي Signe مثلا؟ وهناك بعض القواميس اللسانية تطلق نفس المصطلح (علامة) على Marque، والأنسب أن نترجمه: "شارة" أو "طابع" أو"مَيِّزة".

12- ما وقفت، إلا هنا، على أحد يختلف مع الآخر، بأن Maternel يشار بها إلى كل ماهو أمومي، ومنها Langue Maternelle أي لغة الأم التي نتعلّمها في قرانا وحواضرنا أول ما نتعلم بصورة سليقية لا شعورية.

13- Message، لعل المترجم استأنس بترجمة هذه الكلمة إلى "خطاب" بما ورد في بعض القواميس اللسانية المزدوجة التي ورد فيها فعلاً هذا الشكل من الترجمة، والأشهر من نار على علم أن Message تقابل العنصر الرابع من عناصر التبليغ الستة لدى جاكبسون، والوظيفة الشعرية، ونطلق عليها "مرسلة" تجنبًا للرسالة التي قد يعني بها شيء أوسع وأعمّ من المرسلة، وأما خطاب،فلا أحد يختلف مع نظيره بأنه ما يعرف بـDiscours حتى وإن كان بعض الدارسين (هاريس) يسمي الخطاب ملفوظًا متصلاً أو سلسلة من الملفوظات.

14- يترجم المترجم Modalité بـ"القرائن"، مع أنّ هناك من يطلق القرينة على السياق Contexte أو على Indice، وربما سمّاها مصدر لساني مزدوج آخر "حكم الكلام" من أمر، وتمنٍّ، وخير، واستفهام، أو "الدواخل" (في البنيوية الوظيفية)، بل "معاني النحو"، على حين أن القواميس المزدوجة العامة لا تكاد تختلف في ترجمة Modalité أو Modality إلى:

- طريقة، كيفية، وضع

- أسلوب: الطريقة التي تكتب بها المقطوعة الموسيقية.

- إلى جانب مداليل أخرى.

والّذي نخلص إليه أن "القرينة" Modalité أنسب استعمالاً في مجال السياق والبلاغة، كالقرينة اللسانية (السياقية) والقرينة غير اللسانيّة أو الحالية في مقابل القرينة المقالية،... وكان الجاحظ ممن برع ذهنيًا في التمييز بين السياق المقالي Contexte Verbal والسياق المقامي Contexte Situationnel، أي موافقة الحال، "وما يجب لكل مقام من مقال".

وكنت آنفا أشرت إلى الصعوبة التي وجدتها في ترجمة هذا المصطلح، إلى درجة أنّي عبّرت عنه بكلمته الأجنبية إفرادًا وجمعًا، تلافيًا للغموض المصطلحي إذا ما ترجم ترجمة تحريفية إلى العربية، ولعل كلمة "كيفية" أقرب من "قرينة"، وهذا كله لا يجعلنا في غفلة من أمرنا، بأن هناك فعلاً قرائن نحوية، وحتى في القواميس اللسانية الأجنبية لا تقف على مصطلح أحادي مباشر، يُعبَّر به عن هذه الكلمة، فهذا جورج مونان مثلاً يقول في موداليتي "كلمة متعددة المعاني إلى أبعد حدّ Extrêmement، تشير إما إلى نمط الجملة (كيفية مؤكّدة أو إثباتية، استفهامية، دالّ على التمني، إلخ)، وإما إلى القيمة الدلالية للصيغ Des modes (صيغة (أو كيفية) إخبارية أو دلالية، صيغة فعلية التزامية Subjonctive شرطية Hypotétique الخ)، وإما إلى درجة الفارق الأسلوبي لملفوظ (كيفية ارتيابية Modalité Dubitative).

وتدل الكلمة (Modalité) عند أندري مارتني حصريًا على المحدّدات النحوية (التي جردها محدود) لوحدة دالّة Significative: فالجمع، أداة التعريف، المِلْكِي أو الدالّ على المِلكيّة Le Possessif، اسم الإشارة كلها كيفيات اسمية، في حين أن شارة الشخص والعدد والزمن تشكّل كيفيات فعلية (في الفرنسية)"([[3]](#endnote-3)).

15- ترجمة Mode إلى صيغة مناسبة إلى حدّ ما، ولكنها متداخلة معنويًا مع Modalité: صيغة الفعل، كيفية التلفظ، كيفية الدلالة،ـ وعرّفه ج.دُبْوا "الـمُودْ Le mode فئة نحوية شريكة عمومًا للفعل ومترجمة عن نمط التبليغ المقام من قبل المتكلم بين هذا الأخير ومخاطبه (وضع الجملة Statut de la phrase) أو موقف المتكلم Le sujet parlant بالنسبة لملفوظاته المتعلقة به"([[4]](#endnote-4)).

ومما هو ملاحظ أن جون دبوا يعدّ "موداليتي" مرادفًا لـ"مود Mode" فالتراكيب:

- يجيء سميـر ← إثبـاتيـة.

- هل يجيء سمير؟ ← استفهامية.

- هل سمير لن يجيء؟ ← استفهامية.

سلبية تمثل كيفيات Modalités أو صيغًا Modes.

ونشير إلى أنه ليس بالضرورة أن كل ما ينسحب على لغة ينطبق على لغة أخرى، ومن هنا تبدو علة فوضى المصطلح، كلما أراد أحدنا أن يخضع لغته إخضاعًا تعسفيًا أو قهريًا إلى مصطلحات لا تتماشى مع طبيعة لغته البريئة التي قد لا تحتاج أصلاً إلى كل هذه المصطلحات، أو هي في حاجة إلى مصطلحات لا تزال غائبة عمّا ينسجم مع أنظمتها الداخلية المستقلّة.

16- سبق أن أشرنا إلى أن هذا المصطلح لا يعني الكلمة، بل أصغر وحدة دالة من التقطيع المزدوج الأول، فكلمة: اذهبوا تحوي مونيمتين اثنتين: اذهب+وا، والكلمة: يَذهَبْن تتضمّن ثلاث مونيمات: يـ+ذهب+ن(نون النسوة). والمونيم مرادف تقريبي للمورفيم Morphème المصطلح الأمريكي، وينبّه بعض اللسانيين إلى الحذر من الخلط بين المصطلحين، فالمورفيم الأمريكي يساوي المونيم النحوي عند مارتني، والمونيم بالنسبة لمارتني يكون ثمت اختيار، لا الشكل وحده وحسب، ففي جملة فرنسية "La grande Chaloupe" (زورق الإنقاذ الكبير) لا تشكل العلامات الثلاث للمؤنث أي اختيار، ومن ثمّ فليس هناك مونيم؛ أي يكون المونيم حين يتم التمييز بين جنس المؤنث وجنس المذكر، كما في Tigre (نمر) تعارضًا مع Tigrisse (نمرة).

17- من الأقرب أن نقول المونيم المستقلّ، وإلا قلنا المونيم المكتفي بذاته أو القائم بذاته.

18- سبق أن أشرنا إلى هذا المصطلح Morphème وهو يعادل المونيم النحوي عند مارتني، وليس معنى هذا أن هذه المعادلة وحيدة ونهائية، إذ المصطلح Monème لدن مارتني علاوة على تعريفه العامّ بأنه أصغر وحدة دالة، فإنه قد يكون كلمة عادية أو جذرًا لها أو بادئة أو لاحقة، ونحيل مفهوم المورفيم على ما قاله جورج مونان "هذه اللفظة يمكن أن تغطّي معاني مختلفة جدًا من مؤلّف إلى آخر، والأهمّ أننا لم نُعد نفكر اليوم بأن المورفيمات لن تكون إلا شكلاً دون معنى، في حين أن المورفيمات من وجهة تقليدية عند فندريس Vendryes مثلا، كانت عناصر نحوية (كلمات فارغة) وظيفتها بيان العلاقات المقامة بين الأفكار المعبّر عنها من قبل دوالّ الماهية Les Sémantèmes (كلمات مليئة Mots Pleins)، ولا يوجد من بين المورفيمات الكلمات النحوية وحسب (حروف الجر، روابط العطف والنسق...)، بل كذلك النغمات الصوتية موقع النبر، ترتيب الكلمات...الخ"([[5]](#endnote-5)).

19- سمّى المترجم Morphologie تصريفًا، وإذا كنا لا نعارض مبدئيًا هذه الترجمة الأقرب إلى المصطلح الشائع الّذي عادة ما يقابل به النحو، فإننا كيف نترجم مصطلح Conjugaison المتعارف عليه أنه علم الصرف؟

وكنت منذ مدة طويلة وقفت على ترجمة Morphologie إلى "علم الصيغ" عند الناقد المميز محمد مندور، بينما ترجم Syntaxe بعلم النَّظْم([[6]](#endnote-6))، وهذه الترجمة أنسب في نظرنا من "الصرف" الّذي لا يعني تقليديًا إلا حقلاً محدودًا، ويستحسن أن نعرّبه بدل أن نترجمه، لأننا لسنا ملزمين بترجمة كل مصطلح أجنبي إلى العربية ولو بأقصى الطرائق التعسفية، بل يُستحب التعريب قبل الترجمة.

وما تقوله المصادر اللسانية المختصة أن المورفولوجيا تقليديًا دراسة الأشكال في اللغة، والتغيرات في شكل الكلمات لتوضيح علاقاتها في كلمات أخرى من الجملة، وسيرورة نظام التكوين في كلمات جديدة، وهي تعني:

1)- لدى فندريس الدراسة للمورفيمات التي تتميز عن دوال الماهية.

2)- لدَى سويت Sweet الدراسة للتبدلات الشكلية لكل فئة من الفئات النحوية، أي تعالج عنده تصريف الاسم، التركيب Composition والاشتقاق (مورفولوجيا معجمية)، ترتيب الكلمات، أقسام الخطاب.

3)- عند جسبر سن Jespersen تعالـج دوال وظائف نحويـة (لاحقة أو بادئة، كلمة نحوية، ترتيب الكلمات).

4)- لدن بلومفيلد تدرس التبدّلات لأشكال الكلمات (وحدات معجمية مِثل وحدات نحوية)، حيث المورفيمات التي لا تتواجد دائمًا وحدها كملفوظات كاملة كزائدة أو لاحقة تَرِدُ كعناصر مُقوِّمة.

5)- عند مارتني تخص المورفولوجيا التغيرات لدوال المونيمات أو البدائل الصرفية Allomorphes بالمعنى المبلومفيلدي، فالمورفولوجيا التركيبية تدرس تغيرات المونيمات النحوية (قواعد المطابقة، التصريف...).

6)- ترجم المترجم هذه الكلمة الغريبة نسبيًا إلى كل ماهو صوتي أو تصريفي، وترجمها آخرون علم أصوات البنى مقابلة لعلم تراكيب البنى Morphosyntaxe، أو علم الأصوات الصرفي، وكان تروبتزكوي Troubetekoy أدخل المصطلح في اللسانيات للإشارة به إلى دراسة تعاقبات الفونيمات المستعملة كأنساق مورفولوجية، وهذه التعاقبات لا تخضع إلى توضيبات فونولوجية بل إلى توضيبات مورفولوجية، ونظرا لغموض هذا المصطلح، فإن أندري مارتني تحاشاه معتبرًا إدخاله في اللسانيات يشكل غموضًا خطيرًا بغية التحليل بين مستويين مختلفين في اللغة، ولا يعتبر هذه المصطلحات الثلاثة في النهاية إلا دراسة لتقلبات لدوال المونيمات.

20- لا ندري هل استعمل أندري مارتني Ordre بمعنى "قبيل أو (في تناظر)، فالرجل تحدث هنا عن جرد المقاطع الفونيميّة الخاصة باللغة الفرنسية"([[7]](#endnote-7))، ولكن هل هذه الترجمة بعيدة عن استعمالها المصطلحي والمعجمي معًا طالما أنها تعني نظامًا أو ترتيبا أو تنسيقًا وما دار في فلك هذه المعاني: ترتيب الكلمات، ترتيب مخارج الأصوات،...؟، كلمة Ordre لدى اللساني تشير إلى مجموعة من الفونيمات الصوامتية ذات النقطة نفسها للنطق في لغة من اللغات، ولذا فيظهر أن المترجم وُفّق إلى حدّ قريب، دون إزالة ما يسود الترجمة كليًا من لبس.

21- المشكل أن هذه الكلمة مأخوذة من Paradigme التي مما تعنيه نمطية الاستبدال (إحلال كلمة محل كلمة) أو ميزان التصريف، لكن Paradigmatique عادة ما تقابل Syntagmatique حيث يراد بالأولى محور الإبدال (عمودي) وبالثانية محور التركيب (أفقي).

22- هل يُعبّر بـ Participe عن اسم المفعول واسم الفاعل معًا؟، الذي نعرفه أن اسم الفاعل يقابله Participe Présent، واسم المفعول يقابله Participassé.

## تنويه بترجمة لسانية

وهذا إلى جانب العديد من المصطلحات الأخرى التي لا نريد أن نثقل بالحديث عنها كاهل هذه الدراسة، وما لوحظ لا يعني أنه ينقص شيئًا من الجهود البريئة التي بذلها المترجم، لأن الإشكال عامّ، ولا يخص مترجمًا عربيًا دون مترجم آخر، بل الإشكال الجوهري يكمن داؤه في لسانياتنا العربية الحديثة التي لم تشقّ طريقها بعد إلى العالمية، ولا وجدت نهجها القديم في المحلية، لأن هذه اللسانيات لا تعيش فراغًا أو أزمة مصطلح وحسب بقدر ما تمر بأزمة هضم واستيعاب للنظريات اللسانية الغربية، لبُعدنا عن جذور لسانياتنا العربية القديمة الصلدة، ولعدم مواكبتنا النظريات اللسانية الغربية الحديثة.

أقول ما أشرت إليه أعلاه، لأني سأستأنس بترجمة اللساني سعدي الزبير الذي أعرف جديته اللامتناهية، وصرامته العلمية الدقيقة في التعامل مع المعطيات التي يتناولها أو يبث فيها، منذ أزيد من ثلاثة عقود، وأنا طالب في الدراسات العليا بجامعة الجزائر، فضلا عن إتقانه أكثر من لغة أجنبية، ولكنني سوف أختلف معه في المصطلحات، وفي الحفاظ على الكلمات الأجنبية الواردة في الكتاب مع ترجمتها إلى العربية، ولربما في أشياء أخرى.

وأقول ما أقول لأني هنا دارس لا مترجم، ولكن هذا لن يَثنيني عن مقابلة هذه الترجمة في لغتها الأصل، وما يهمني من هذا الكتاب هنا رصد العناصر المتعلقة بالوظيفة عامة، والسانتكسية خاصة، وأشهد بأنّ هذه الترجمة من الترجمات الجيدة التي وقفت عليها، والتي لا تعدَمُ أن تكون أمينة إلى حدّ كبير.

المحاضرة: 3

**دراسات في اللسانيات العربية الحديثة**

**(عبد الجليل مرتاض)**

**(جامعة تلمسان)**

بعودتنا إلى ما توفر لنا من انجازات في الدراسات اللسانية العربية، سواء ما تعلق بمؤلفات القرن الماضي أو يداية هذا القرن، أو ما اتصل بالأطاريح الجامعية الجديدة، فإنه اتضح لنا اتضاحاً أبعد عن الشك وأقرب إلى اليقين، وبكل مرارة وأسف عميقين أنه، وحتى الآن، لا توجد لدينا لسانيات عربية أسوة بلسانياتنا العربية القديمة أو قدوة باللسانيات الغربية الحديثة، وبعبارة أخرى" هل أصبح جائزاً لنا، وفي خضم تطور الدراسات اللغوية، أن ننسُب لغة إلى نفسها أو علم لسان إلى لغة بعينها حتى يُسمح لنا بالقول مثلاً: اللسانيات العربية؟" وسؤال آخر: هل هناك لسانيات عربية ولسانيات صينية، وأخرى صربية،...؟"(1)

بكل روح بريئة، يمكن لنا أن نقول : يبدو أنه لا توجد لدينا حتى الآن "شيء اسمه لسانيات عربية" (2)، وكل ما يروج بيننا في الأغلب الأعم مشرقا ومغربا بوادر اجتهاد فردي في هذا البلد العربي أو ذاك، لكن هذه البوادر لا تشجعنا على القول ببروز ميلاد جاد للسانيات عربية "بل كرما في الأمر أن ثمت مواقف مشاكسة، وتراكمات من المصطلحات غيرالموحّدة التي لا يخلو جلّها من غموض دلالي وعلمي، فإذا أنت تصفحت وثائق لسانية مشرقية تكاد مصطلحاتها تنبري لكم تارة مختلفة، ومرة متضاربة مع مائة تقف عليه لدى لسانيين مغاربيين، حتى كأنما أضحى كل لساني عربي هنا وهناك اتجاها، ولا أقول مدرسة، لسانيا قائما بذاته.

وإذا ثقافتنا اللغوية العربية المعاصرة تكاد تعدم علم اللسان الحديث بمعطياته العلمية، فلا يأخذنا ذهول كبير عن أسباب هذا الغياب، ذلك أن اللسانيات التي هي الدراسة العلمية للغة، كما صارت تسمّى منذ أزيد من قرن، اتجاه كاسح ظهر في سماء أوروبة وأمريكا منذ قرنين على الأقل، وتطور هذا الاتجاه اللساني نوعيا بشكل مطرد وسريع موازاة مع تطور الغربيين في مجالات ثقافية واجتماعية واقتصادية وأنْسنييّة (انتروبولوجية) وصناعية وتقنولوجية... أخرى.ومن ثم، فإن تأخرنا نحن العرب في هذه المادة مادة اللسانيات ظاهرة طبيعية انسجاما مع تقهقرنا في سائر الحقول الأخرى(علاوة على غياب التنوير الفكري الذي غدا يميل إلى الترجمة والهضم السطحي دون أن يسقط عليها ما لدينا من تراث لساني"(3) صنعه علماء أربعة قرون على الأقل.

إن اللسانيين الغربيين الحديثين الذين نتخذهم اليوم أساتذة لنا طوعا أو كرها لم ينشؤوا لسانيتهم التي أضحت ذات طابع عالمي من فراغ، رغم إجماعهم "على أن موضوج ومنهجية اللسانيات "كدراسة علمية للسان" لم يحددا بدقة إلا بعد نشر كتاب فرديناند دي سوسور(دروس في اللسانيات العامة) سنة 1916، أي بعد وفاته بثلاث سنوات، وكل دراسة تخصّ اللسان ستكون محددة بفترة ما قبل سوسور أو بعده" (4)

غير أن اللسانيين الغربيين لم يهملوا ولا تجاهلوا جملة وتفصيلا دور اللسانيات التاريخية التي أصبحنا نحن الدارسين العرب اليوم نقلب لها ظهر المجنّ أو نكاد نجعلها وراءنا ظهريا، بل نوّهوا بها، وعادوا إليها بوصفها إرثا حضاريا، وكل ما فعلوه أن منهجوها، ووضعوا لكل صنف منها حدّا لها"بحيث لا يلتبس ما هو تاريخي أو دياكروني بما هو آنيّ أو سانكروني".

ونحن اليوم حين نعود إلى اللسانيات الغربية الحديثة نشعر أمامهم أحيانا حتى بتلمذة لا نستحقها، ومن حسن حظ لسانياتنا العربية المتضعضعة أن ثمّت دعما غير محدود من هيئات عربية مشكورة لمؤسسة محمدين راشد آل مكتوم، التي أصبحت تضطلع بكل سخاء وروح علمية قومية بما تقترحه المنظمة العربية للترجمة من مؤلفات وموسوعات لسانية إلى اللغة العربية، الأمر الذي سيساعد لسانياتنا العربية الحديثة مواكبة التطور والتنوع الحاصلين في سماء أوروبة وأمريكا، ولعل أبرزها حتى الآن:

1. وظيفة الألسن وديناميتها لأندري مارتني
2. النظرية النحوية جيفري بوول
3. دليل السوسيولسانيات لفرونيان كولماس، وهذا الدليل اللساني الضخم عبارة عن موسوعة لسانية علمية للغة الإنسانية في منظورها السوسيولساني، وبعدها التواصلي الاجتماعي.
4. مدخل لفهم اللسانيات لروبير مارتان

وهذا فضلا عما يوم به المركز الثقافي العربي في بيروت من إقبال على ترجمة بعض الأعمال اللسانية التي قد تعدّ رائدة، وكيف لا، وقد أقدمت بعضا من أعمال رومان جاكبسون الذي يُعد الأرضية الثانية للسانيات العالمية بعد اللسانيات الديسوسورية، ومنها:

1. أساسيات اللغة
2. الاتجاهات الأساسية في علم اللغة
3. والتفت المركز الثقافي العربي أيضا إلى ترجمة "المعجم الموسوعي في علوم اللغة" لصاحبيه: أوز والد ديكرو، وجان ماري سشايفر، وهو قاموس لساني عام، ولساني استثماري تطبيقي في مختلف الحقول اللسانية والنّصيّة، ومترجمة الدكتور لمنذر عياشي اضطلع بترجمات في ميادين لسانية أخرى، وبجهود فردية كترجمته "السيميولوجيا" لبيير جيرو وغيرهما.

وموازاة لهذه الهيئات ومراكز البحث العربية التي أسهمت إسهاما كبيراً في وضع اللبنات الأولى للسانياتنا العربية الحديثة، فثمّت أيضا المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، الذي يجود جوداً غير محدود على كل المبادرات العربية الجادّة في كل ينهض بعلوم اللغة العربية من ترجمة وتأليف تحت مجهر "عالم المعرفة" علاوة على مجلات ودوريات وتحقيقات تراثية.

ولعل، وبدون لعلّ، أبرز ما تُرجم، وكان له وقع كبير، إن لم أقل مخدّراً، ما يمكن تسميته بـ"إنجيل" اللسانيات العالمية قاطبة، إنه "محاضرات في اللسانيات العامة" لأبي اللسانيات الحديثة فرديناند ديسوسور،و يظهر أن اللسانيين المغربيين كانوا أسبق اطلاعاً علينا من نظرائهم المشرقيين، بحكم إجادتهم للغة الفرنسية، وبحكم أن الكتاب طبع سنة 1916، وهي سنة لم يكن فيها شبح لأي لسانيات عربية بعْد، لكن ممّا يؤسَفُ له أن ترجمة هذا الكتاب تأخرت تأخّرا مذهلاً، لكن هذا الذهول لن يلبث أن ينقشع سرابه أمامنا إذا ما علمنا الخطوات الاحْتشامية التي كانت تتحرك في ضوئها لسانياتنا العربية الحديثة، في معاتنا الثلاث الأولى (العاصمة، قسنطينة، وهران) مثلاً كان يدرّس فيها مدرسون من بلاد المشرق العربي، وهؤلاء كانوا يدرسّوننا في السبعينيات دروسا فقلغية (فقه لغة) كلاسيكية، ولم أسمع يوماً أحداً ممن درّسنا بابا من علم اللغة أن له يذكر لنا دي سوسور، وفي أحسن الأحوال كانوا يتخذون كتاب "اللغة" لفندريس مرجعا أساساً، كتاب أُهمل أو كاد يُهمَل اليوم، لأنه كتاب لا يُقّدِّم اللّسانيات ولا يؤخّرها،...

وحتى لا نبخس الناس جهودهم في هذا الإطار، فعلينا أن نُنوِّه بما قامت به جامعة دمشق من ترجمات لأرقى ما أنجز في اللسانيات الغربية الحديثة، ومن أشهر هذه الترجمات شُيوعا ومقروئيّة وتأثيراً في الملتقى العربي المتعطّش إلى كل ما جدّ في الغرب من نظريات لسانية رهيبة :

1. تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، لجورج مونان
2. علم اللغة في القرن العشرين لجورج مونان
3. مدخل إلى اللسانيات لرونالد إيلوار

وذلك علاوة على ما قام به المرحوم جعفر دكّ الباب من ترجمة "نظرية أدوات التعريف والتكبير وقضايا النحو العربي" برعاية وزارة التعليم العالي السورية لمؤلفه الروسي غراتشيا غابوتشان، واعتمد المؤلف في كتابه هذا على مدونات نحوية عربية أصلية بخصوص ما يعرف بالأداة، وهو موضوع لفت كثيرا من الدراسيين الغربيين إليه ليقين هؤلاء أن "مقولة الأداة في اللغة العربية أمر بَدْهي" (5). وهو موضوع، رغم طرقه من علمائنا القدماء أمثال سيبويه وابن جنّي والزمخشري وابن مالك وابن يعيش وابن هشام... ومن علمائنا المحدثين أمثال إبراهيم مصطفى السامرائي، وعباس حسن، والمهدي المخزومي... وغيرهم، فإنه لا يزال شبه بكر يحتاج من الباحثين منا إلى رعاية وعناية، وهذا ما يجب أن يكون كلما أردنا أن نؤصّل اللسانيات العربية، ولا تُؤصّلُ ‘لا بمدوناتها التراثية الرحبة ومقارنتها بما جدّ من جديد في النظريات اللسانية الغربية الحديثة.

وإذا أُُريدَ لهذه القراءة الخاسفة أن تكون أكثر مرْكزيّة فإنه يجدر بها أن تلتفت، عن حب أو كره، أول ما تلتفت إلى اللسانيات العربية الحديثة في مصر، وفي تقديرنا الخلفي إزاء هذه المادة، فإنها وُلِدتْ أوّل ما وُلدت في مصر، لكن هذه الولادة كانت قيصرية، مما جعل اللسانيات العامة لا تعرف تطوراً متماشياً مع ما كان يجِدّ من نظريات وحقول لسانية في الغرب.

ورغم أننا لا نملك قراراً جازماً يسمح لنا بتعيين لغوي مصري رائداً لمادة اللسانيات، لقصورنا عن الاطلاع الشامل لبداية ظهور هذه المادة في هذا البلد الذي يعدّ رائداً للنهضة العربية، فإننا لا نتردّد كثيراً التّردد في عدّ عبد الواحد وافي رائداً مصريا وحتى عربيا مبكراً في افتضاض هذه المادة ولو بصورة لا تقنع أحداً منا اليوم بأن ما نهض الرجل يقبل اليوم كلّه في صلب اللسانيات بمعانبها الحديثة.

ورغم أني كنت أملك كتابي الرجل اللذين اشتهر بهما (فقه اللغو وعلم اللغة)، منذ بداية السبعينيات، فإني ظللت لا أشك، أن الأستاذ علياً عبد الواحد وافي ألّف ما ألّف (فقه اللغة) قبل (علم اللغة)، غير أن الثاني أسبق تأليفا من الأول مخالفة لطبيعة الأشياء، وهذا غير مهم اطلاقا، لكن الأهم منه أن الأستاذ وافي، رغم ثقافته الموسوعية العامة والخاصة، عربيا وعالميا، فإنه لم يكن مختصا في اللغويات في جميع مستوياتها المعهودة، فأطروحته التي نال بها الدكتوراه بباريس سنة 1931 مان موضوعها "الفر بين رقّ الرجل ورقّ المرأة" كما أن الرجل لا يجوز إلا بحثا أو بحثين (منهما: نشأة اللغة عند الطفل) لا صلة لهما بشكل مباشر أو غير مباشر بعلوم اللغة الحديثة من بين عشرات مؤلفاته وأبجاثه الغزيرة.

وإذا كنا نلتمس للرجل أعذاراً لا عذراً واحداً في "فقه اللغة"، فإننا عاجزون عن ذلك أمام كتابه "علم اللغة" الذي لا يحمل إلا الاسم، وإلا فماذا تعني عناوين فصوله أمثال:نشأة اللغة، حياة اللغة، فصائل اللغات، صراع اللغات، التطور اللغوي العام، أصوات اللغة: حياتها وتطورها، الدلالة وتطورها؟.

ولعل العذر الوحيد الذي يكون مقبولا للرجل المراجع الغربية التي عاد لها (وهي 49 مرجعا) !

Le langage et la vie : BALLY

Essai de Sémantique : BREAL

La Philosophie du Langage : DAUZAT

Limitation chez l’enfant : GUILLAUM

Comment les mots changent de sens :MEILLET

L’orogine du Langage : RENAN

Le Langage : VENDRYES

Essai de Philologie Française : TOMAS (Antuine)

وغيرهما من الأعمال اللغوية الأجنبية التي بلغت عنده تسعة وسبعين كتاباً حلّها بالفرنسية وبعض منها بالانجليزية، لكن ما أذهلني أنه عاد إلى كتاب Le Langage (اللغة) لإدوارد سابير، وهو كتاب لا يبزال مؤهلاً حتى عهدنا للمرجعية اللسانية العالمية، ذلك أنه إذا قال رومان جاكبسون لاحقا: "لو نأخذ القسمات السمعيّة، سنجد أمامنا اثني عشر زوجاً فقط من الفوارق أو عوامل التمايز تشرك فيها كل لغات العالم"(6)، فإن عالم اللغة الأمريكي إدوارد سابير Edward Sapir يكون أول لساني في القرن العشرين نبّه هذه الظتهرة الصوتية التي "تتوزع على نطاق واسع في تكلمات الناس مع تباين اللغات مفردات وأبنية"(7)، وذلك من خلال قوله: "القاعدة الأساس للغة، الإنشاء لنظام صوتي محدد غاية التحديد، ترابط عناصر لسانية وتصورات، والقيام بعلاج كل صيغ التعبير للعلاقات برشاقة، كل ذلك يوجَد متقناً ومقنّناً إلى أقصى حدّ، في كل اللغات المعروفة، وألسنة القوم الفطرية تملك على ما يرام ثورة من الأشكال وغزارة من التعابير التي تتغلب على كل ما يمكن ان نجده في اللغات المتمدّنة العصرية...كونية وتنوّع الكلام يقودنا إلى استنباط مهم، هو أن أشكال اللغات كلها تتفرع أو لا تتفرع عن شكل بدئي واحد، ويجب أن نعترف "بأن اللغة ما هي إلا إرث في غاية القِدم للسلالة الإنسانية" (8).

ومع قيمة كتاب "علم اللغة" للأستاذ وافي، هذا الكتاب الذي كاد يسميه "فقه اللغة" بدلاً من "علم اللغة" كما قال:" وقد كنّا نودّ أن نسميّ كتابنا هذا باسم "فقه اللغة" لولا أن هذا الاسم قد خُصّص مدلوله في الاستعمال المألوف فأصبح لا يفهم منه إلا البحوث المتعلّقة بفقه اللغة العربية وحدها"(9)، فإن هاجس علم الاجتماع لابن خلدون وخاصة دور كايم DURKHEIM الذي أنشأ ما سمّي "المدرسة الاجتماعية الفرنسية" Ecole Sociologique Française في أوائل القرن العشرين، ظل يخالجه في دراساته اللغوية، حيث يميل دائماً وباقتناع إلى القول بالعلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، أي "أثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبنيته في مختلف الظواهر اللغوية"(10) كردّ فعل على" النداة الجدد Ned-Grammairiens " القائلين بجبرية الظواهر اللغوية، لأي هذه الظواهر لا تسير تبعا للمصادفات بل تخضع لقوانين ليس للفرد سبيل عليها.

ورغم أن الأستاذ وافي الذي بذل جهوداً متميزة له فيها فضل السبق في الدراسات اللغوية العربية الحديثة، فإنه ظل متأثّراً تأثّرا مطلقا بكل ما هو خارجي أو تاريخي، ولذلك لم يُفدْ أيّة إفادة من كتاب دي سوسور، الذي كان في متناوله، لكون أساتذته أنفسهم لم يتفاعلوا معه إلا نقدا سلبياً غير مسيغين الفكرة الديسوسورية الجديدة القائلة: "إن هدف الألسنية المنفرد والحقيقي إنما هو اللغة منظوراً إليها في ذاتها ولذاتها"(11)، علاوة على كون مشرفه الفرنسي هنري دولاكروا HENRI DELACROIX كان أستاذاً في علم النفس، وكان شغله الشاغل: اللغة والتفكير La Langue et la Pensée إي "دراسة العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها وبيان أثر كل منها في الآخر"(12).

ومع ذلك، فإن كتاب "علم اللغة" للدكتور وافي يفقنا، ربما لأول مرة، على مصطلحات لسانية جديدة، ويشرحها للمتلقين العرب بأسلوب علمي ممتنع سلس قلّما نقف على مثله لدى من جاؤوا من بعده من المترجمين أو المنتجين العرب في الحقل اللساني، هذا الحقل الذي كثيرٌ من طلبتنا والباحثين المبتدئين يشكون طلامسه وصعويته بخلاف الحقول الأخرى، لاسيما إذا تمت الترجمة من غير اللغة الأصل، من ذلك ما حدث لي معأ أستاذ سوري فاضل قام بترجمة Elément de Linguistique Générale " (عناصر اللسانيات العامة)"، وكان متعاونا في مؤسسة التعليم العالي التي كنت مديراً لها في الثمانينيات، إذ استشارني، فشجعته، ونصحته بالاتصال بأستاذنا المرحوم الحاج صالح عبد الرحمان ليحرر له مقدمته بدلا مني، وذلك ما حدث فعلاً، ولما تصفحت ما ترجم ألفيت نفسي لا أملك أية مبادئ في اللسانيات، ولما عدت إ‘لى النسخة الفرنسية وجدت ما يقوله المترجم لا يقولد أندري مارتني، لأن المترجم ترجمه من اللغة الألمانية إلى العربية، وهو ذو اختصاص في الأدب المقارن، ولم يكن له صلة بأية خلفية لسانية، ويبدو أن هذه الترجمة لم يُقدّر لها أن تروج بين القراء والباحثين العرب، بينما الترجمة اللبنانة وترجمة الأستاذ سعدي الزبير للكتاب نفسه مفهومتان وجيدتان، ما عدا إشكالات مصطلحيّة.

وإذا كنا نوّهنا بجهود الأستاذ في علم اللغة فالأمر لا يتعلق إلا من باب السبق الذي كان حتى الأربعينيات من القرن الماضي ذات مقاربة غريبة على الثقافة اللسانيّة العربية، التي كانت ثقافة فقلغية في أحسن الأحوال، وكانت هذه اللسانيّة مشدودة بجذور اللسانيات العربية التي من العار على العرب الملمّين بنظرياتها الخلفية أن يسموها "تقليدية"، بل الأوْلى أن ندعوها "أصلية"

أجل هناك لضيف كثير من اللغويين المصريين الذين أسهموا في الحركة اللسانيّة العربية الحديثة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

محمود السعران في كتابه "علم اللغة(مقدمة للقارئ العربي)، هذا الكتاب الذي ظل مرجعاً لتحديث اللسانيات العربية والباجثين العرب في كل مكان لمدة عقود من الزمن

* محمود فهمي حجازي في كتابه "مدخل إلى علم اللغة"، وغيره من الكتب
* كمال محمد بشر في كتابه "دراسات في علم اللغة" وغيره
* توفيق محمد شاهين في كتابه "علم اللغة العام"
* عبد الصبور شاهين في كتابه "في علم اللغة العام"

إلى غير هؤلاء من اللسانيين المصريين أمثال إبراهيم أيسر ذي الثقافة اللسانية الأنجلوسكسونية كما يبدو من مرجعيته اللسانية، إذ من بين29 مرجعاً أجنبياً نقف عليه في كتابه "دلالة الألفاظ" لا يطالعنا إلا ثلاثة بالفرنسية وسائرها بالإنجليزية، أما المراجع العربية في الكتاب نفسه، فتُعَدّ بالعشرات، بيد أنها لا تشمل إلا مرجعين اثنين في كل مجال اللغة (علم اللغة لوافر، ومناهج البحث اللغوي لتمام حسان) وسائرها فقلغية ولغوية جديدة أو تاريخية، وهذا يوجّهنا إلى أن مصر حتى الخمسينيات كانت في فقر مدقع في مجال اللسانيات.

محمود جاد الرب في مؤلفه "علم اللغة: نشأته وتطوره" كبع سنة 1985، وهو من خيرة الكتب التي أُلّفَت في تلك الفترة اللسانية القاحلة في مصر وسائر البلاد العربية، وذلك لكون الأستاذ محمود جاد الرب قد أفاد من استثمار ما تقدّمه وعاصره من مراجع لسانية مصرية ولبنانية حديثة، ورغم توجّهه اللساني العام أنجلوسكسونيا كما يبدو من مراجع وقول ميسر أجنبية، فإن الرجل له مكنة في هضم العناصر اللسانية العامة والتطبيقية التي شملها عمله هذا.

أحمد سليمان ياقوت الذي أقدم تأليف جديد يتعلق بكتابه "علم اللغة التقابلي" حيث كان هذا الموضوع في بداية الثمانينيات شبه عمل لساني طابوهي في جامعاتنا العربية...

حلمي خليل في كتابته "العربية وعلم اللغة البنيوي" طبع سنة 1988، واتجاه الأستاذ حلمي خليل الأنجلوسكسوني لم يصْرفْه عما سبقه من مؤلفات لسانية مصرية وعربية كعودته إلى المجلّديْن: الأول والثاني من "مجلة اللسانيات" سنتي 1971و 1972، التي كانت يشرف على إصدارها ورعايتها أستاذنا المرحوم الحاج صالح عبد الرحمان في الجزائر... واللائحة طويلة جدّا يتمركز في لبّها الأستاذ تمام حسان بإنجازاته اللسانية نظريا وتطبيقيا،... فضلا عما يمكن أن نسمّيه باللسانيات الفنية والنقدية مثل "نظرية البنائية في النقد الأدبي" الذي ظهر في السبعينيات من القرن الماضي للأستاذ صلاح فضل... وأما ما ظهر من كتب "فقه اللغة" في مصر، فهي كثيرة، وتبدو أهميتها في بحث اللسانيات العربية القديمة وجعلها تقارع اللسانيات الغربية الحديثة.

وسبق لنا أ ألمحنا إلى إسهام بعض الهيئات الحكومية السورية في الاهتمام بالمجال اللساني، بما في ذلك اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، الذي أصدر عبر مجلته "الموقف الأدبي " عدداً خاصاً ( العددان: 135-136 سنة 1982) باللسانيات يبشمل ترجمة "علم اللغة" للساني الفرنسي دانييل مانيس، وهي ترجمة علمية واضحة ومفيدة جداً للباحث العربي الفضولي في هذا المجال، بل أكاد أجزم وأقول: إن أفضل ترجمة لسانية للعربية وقفت عليها حتّى الآن مشرقاً ومغرباً.

وبالنسبة إلى الجهود ،الفردية في سورية، فيمكن أنْ نَعُدّ وبدون تردّد ما نهض به العالم اللغوي السوري منذر عياشي من ترجمات لسانية، بعضها موسوعي، قد أثرى اللسانيات العربية الحديثة ثراء مباشراً عبر ترجمته "القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان" من تأليف أوزوالد ديكرو، وجان ماري سشايغر، وهو قاموس صدرت طبعته الأولى عن جامعة البحرين سنة 2003، ثم طبعته الثانية سنة 2007، وهذا القاموس المترجم هو غير "القاموس الموسوعي في علوم اللغة" المعروف فيما بيننا بصورة واسعة في الجزائر، وهذا القاموس الذي أصدرته Points سنة 1972، المؤلف من أزوالد ديكرو، وتزيفيتان تودوروف.

ويذكر المؤلفان للقاموس الثاني أن قاموسهما يخلف القاموس القديم الذي شارك فيه أيضا Oswald Ducrotمع نظيره الثاني "لقد تطورت علوم اللسان كثيراً منذ عشرين سنة إلى درجة أننا، في التفاصيل، لكم نعد نجد شيئا مبيراً هنا من كتاب 1972، حتى وإن كان التنظيم العام وعنوان عدد كبير من المداخل قد ظل على حاله" (13)، وهذا النص للمؤلفين مضلِّل وخدّاع، لأن المواد اللسانية المطروحة في القاموس الموسوعي في علوم اللغة تكاد تكون هي نفسها تتكرر تكراراً يكاد يكون مائة في المائة في فيما سمي بـ "القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان" أوصافاً ومعطيات، وكل ما في الأمر قلم المؤلفات بتغيير ترتيب المواد اللسانية ما بين كل مبحث ومبحث تقديماً أو تأخيراً.

وما أشرنا إليه لا ينقص أي شيء من قيمة ترجمة الأستاذ منذر عياشي، لأنه غير مسؤول على ما ألمحنا إليه آنفاً، حتى وإن كنا نختلف معه في غير قليل من المصطلحات اللسانية المترجمة من الفرنسية إلى العربية:

* القواعد العامة 1- Grammaire Génerale

والأفضل أن نقول "علم النحو، على أن ننحتها بـ "العَلْمحة"

أما إذا ترجمناها بقولنا "علم النحو والصرف" فيُنْحَت المصطلح "العلْنصة" ومن هنا يمكن لنا أن نقول: الـ علْنِحيّ" في Grammatical و"صيْرورة علْنحِية" في Grammaticalisation و "عليحية" فيGrammaticalité وهكذا ... كما أنه يترجم:

* اللسانيات الرياضية (المنظوماتية) 2- Glossématque

مع أن الترجمة الأكثر شيوعاً بيننا "النّسقية" ومن العرب من عرّبها باسم "الجلوسماتية" خاصو وأن الكلمة ليست دانماركية (من لغة بروندال وهلمسليف) بل هي ذات أصل يونانيGlossa (اللّغة)، ومنها اشْتُقَّ Glosseméالدال به في النسقية أصغر شكل لغوي في مستوى التعبير كما في مستوى المحتوى بحيث يتعذر تخفيضه ( قِ، عِ، رَ من: وقى، وعى، رأى). كما ترجم:

* المتصورات المعترضة 3- Les Concepts Méthodologique

وهي ترجمة لسانية بعيدة بعد السماء عن الأرض بما يُعنى به في اللسانيات الغربية، والأولى أن يترجم "التصورات المنهجية".

والشيء نفسه أنه يترجم:

* المتصورات الخاصة 4- Les Concepts Déscriptifs

والأولى أن يترجم المصطلح بـ "التصورات الوصفية" لأن Concept في أصله مصطلح فلسفي يُعْنى به ماهية مجردة عن المادّة وعن الأعراض، أماDéscriptif ، فلا خلاف فيها بين الناس.

وهكذا تستمر معاناة متصفح هذا القاموس الذي يُعَد دفعاً قوياً لتطور اللسانيات العربية الحديثة، علماً بأن الدليل المصطلحي المثبت في القاموس الأول بالفرنسية أكثر اتضاحاً وأوسع شمولاً بالدليل المصطلحي الملحق بالقاموس الجديد المترجم من الأستاذ عياشي، من ذلك ترجمته:

* إبعاد (إبعاد الحبال الصوتية عن بعضها 5- Abduction

فأنت ترى أنه استخدم "الحبال" بدلاً من "الأوتار": والمقصود بهذا المصطلح الصوتي ظانه يُطْلق على تبعيد الأوتار الصوتية الواحد عن الآخر مما يسمح بفتح المزمار.

بل أول كلمة من الدليل الملحق:

* اختصار كتابي، كلمة موجزة 6- Abreviation « NM »

فالكلمة مؤنثة أي N.F وليست مذكّرة، وكذلك حين يتحدّث عن:

* عامل 7- Actant

حيث يطلق عليه "عامل" دون مفرّق بين Actant selon Tesnièreg و Actant Narratifأي المصطلح الأخير استعمله تنيير للدلالة على الكائن أو الشيء الذي يشترك بصورة فعلية أو عديمةPassive في العلمية المعبَّر عنها بالفعل ولذا كان من الأفضل أن يُطْلق "فاعل" على Actant انسجاماً مع وظيفته السردية.

ولا نريد أن نستمر في الحديث عن هذا القاموس الذي لا يخلو من خَلَل يحتاج إلى إصلاح ومراجعة كثيريْن، وذلك حتى نبعد اللسانيات عن الإنشائيات.

ومن السوريين الذين برعوا في اللسانيات من عامة وتطبيقية وتعليمية وحاسوبية... الأستاذ مازن الوعر، هذا الرجل الذي قضى شطراً من حياته يبحث ويتعلم في أمريكا عاملاً على اقتفاء آثار المدرسة التحويلية التوليدية لتشومسكي، هذه اللسانيات التى حاول تطبيقها على اللغة العربية، علماً بأن هذه النزعة التشومسكية تبقى دائما أكثر إفادة للغة الإنجليزية منها إفادةً لِلُغةٍ أخرى، ولاسيما اللغة العربية التي ستبقى لغة حروناً إلا مع نظرياتها الأصيلة.

ولكن الرجل كان ولوعاً جداً بعالم اللسانيات الأمريكي الذي أجرى معه حواراً مطوّلاً ضمَّنه كتابه "دراسات لسانية تطبيقية"، ومن درجة وَلوعه به يبينه قوله: "ولكن- والحق يقال- لقد استطاع عالم اللسانيات الأمريكي نوام تشومسكي N.Chomsky مؤسس نظرية النحو التوليدية و التحويلية أن يفجّر ثورة لسانية أكثر عمقاً وأشمل أفُقاً من أي عالم لساني في التاريخ الحديث والمعاصر. فقد استطاعت هذه الثورة اللسانية أن تأخذ أبعاداً أكثر عمقاً وشمولية، بل لقد استطاعت أن تملك القوّة الزمنية القادرة على الخلق والإبداع اللساني الذي أسهم وما يزال يُسهم في كشف القوة العجيبة والسحرية للغات البشرية. إن الحركة الجدلية بين اللسانيات إنما يعطي هذه النظرية نوعاً من الكمل والإستمرارية" (14) مع أننا صرنا نعلم، أو هكذا نعتقد على الأقل، أن البنية اللغوية بنية لسانية مجردة منغلقة على نفسها، ولا يفتّقها إلا نظامها، بحيث كل لغة نظام لساني مستقل قائم بذاته لا بغيره، وهو لا يحتاج إلى أي استيراد لساني كان ما كان، ليكون أو لا يكون.

وما أُلمِح إليه بشأن اللسانيين السوريين ليس ألا عيّنة، وبشكل عامّ، يقتضي منا الهاجس العلميّ المشترك ببعديْه: المشرقي والمغربي أن نعترف اعترافاً جميلاً لجهود سورية أخرى في ترجمة مصادر لسانية معاصرة أضاءت مناهجنا اللسانية العربية وحركاتها الإبداعية والفنية بإسقاطها على أجناس أدبية من قصة وشعر ورواية.

كما أن ما لفت انتباهي منذ عقود من السنين أن وزارة التعليم العالي السوريّة مثلما التفتت إلى ترجمة مؤلفات في الإعلام والاتصال والصناعة الميكانيكية والذرة والتكنولوجيا... اهتمت أيضا بترجمة عشرات المؤلفات في العلوم الإنسانية، ومنها الأعمال اللساني،وهذا ما أكاد أعرفه شائعاً شيوعاً منتظماً مبكراً في بعض البلاد العربية الأخرى.

وكان بودي لو أنهيت التفاتتي هذه إلى نماذج من الجهود السورية في اللسانيات العربية الحديثة، لكن مؤلفاً لغوياً سورياً استدعى اهتمامي، ويتمثل في "الوجيز في فقه اللغة" للأستاذ محمد الأنطاكي، بسبب أن هذا الباحث من الجيل اللغوي السوري المتقدم صحبة لغوي سوري آخر، وأعني به هنا الأستاذ محمد المبارك صاحب "فقه اللغة وخصائص العربية"، فضلاً عن أي هذا الرعيل المبكر من اللّغويين السوريين كان يُؤْثِر مصطلح "فقه اللغة" جَرْياً مع مناهج الجامعة السورية في ذلك الوقت (15)، كما يظهر هذا الاعتقاد السائد بينهم حينئذ عبر Arrière Page de Garde (مؤخَّرة الصفحة من الكتاب) بقوله: "هذا كتاب حاول فيه مؤلفه أن يقدم للقارئ العادي، وللطالب الجامعي التخصّص، صورة واضحة لهذا النوع من النشاط اللغوي الحديث الذي يُدْعى فقه اللغة" (16)، وذلك رغم ما يشوب هذه الفقرة الأخيرة من تناقص صارخ، لأنه مصطلح "الفقه اللغة" حديث، وقد ظهر لدى الإغريق ما قبل الميلاد، ولدى العرب منذ عهد القرن الرابع للهجري على الأقل (فقه اللغة لابن فارس المتوفى سنة 392هـ)، ولا الغربيون يسمّون دراستهم اللغوية الحديثة باسم "فقه اللغة".

وإذا كنا اليوم لا نشاطر الأستاذ الأنطاكي على المساواة بين فقه اللغة واللسانيات، فإنه كان بودّنا لو أنه لم يلتزم بهذه المصطلحات الجغرافية المحلية التي اعتاقت تطور اللسانيات الحديثة عند العرب قاطبة، بحيث أصبح كل بلد في المشرق أو المغرب يستحدث مصطلحات لسانية يعتقد أنها الأصْلح والأوْلى والأرجح، حتى غدوْنا نعيش مدارس لسانية عربية بالمصطلحات المتعارضة تارة، والمتناقضة تارة أخرى، لا مدارس لسانية بالنظريات والابتكارات والبراءات، وإذا ما كان هذا مسوّغاً بين اللسانيين الغربيين فلأنهم يتلاسنون بألسنة مختلفة، بينما هذا مسوَّغ لدى العرب، وهم يتواصلون بلسان عربي مشترك.

من ذا الذي منع الأنطاكي من استعمال مصطلح "المماثلة" و"المخالفة"، مثلاً، وقد رجع إلى "الأصوات اللغوية" لإبراهيم أنيس بدلاً من "التماثل" و"التخالف"...؟

أيا كان الأمر، فإن كتاب الأستاذ الأنطاكي نسيج تاريخي للغة العربية وشقيقاتها الساميات، وعرض وصفي دقيق للأصوات العربية كما شرّحها الخليل وسيبويه وابن جني ومن جاء بعدهم من عرب وأجانب.

أما حين يتحدث الرجل عما أسماه "المورفيمات"، فإنه لم يعالجه لا في ضوء مفهومه ودقته في المدرسة التوزيعية، ولا بما يرادفه إلى حدّ ما في المدرسة الوظيفة، لذا أندري مارتني، وبدلا من ذلك غاص في كتاب "اللغة" لفندريس، هذا الكتاب الذي كان أحد الأسباب المؤثرة في تخلّف اللسانيات العربية الحديثة عقوداً من الزمن، فأنا مثلاً، حين كنت طالبا جامعيا في أوائل السبعينات من القرن المنقضي، كان أستاذنا في علم الدلالة و فقه اللغة يدرّسنا حرفياّ بهذا الكتاب، وكنا نقضي محاضرات في مصْطلحيْ "الماهيات" و"دوال الماهية"،علما بأن المورفيم لدي بلومفيلد يقابل المونيم لدى مارتيني ، بينما هذا الأخير يطلق المورفيم على كل لاحق وسابق بوحدة لغويّة رساما كانت أم فعلا أم ظرفاً أم حرفاً...

وقبل أن أعرّج على اللسانيات الحديثة في المغرب العربي كان لزاماً عليّ أن أعرّج على لبنان، هذا البلد العربي الذي كان إلى عهد قريب يكاد اللاعب الوحيد في الطبع والنشر مقابل التحقيق في مصر.

إن هذا البلد العربي المتفتح على الثقافات والأديان وذا الخصوصيات الرهيفة لتركيبته الإنسانية عبر آلاف خَلتْ من السنين يتوان في التخلف للإدلاء بدُلِيِّه للإسهام في تنمية اللسانيات العربية الحديثة ترجمةً وتأليفاً ونشراً وتسويقاً على نطاق واسع عبر كل البلدان العربية .

ذلك أن المنظمة العربية للترجمة، التي يحتضنها هذا البلد نهضت نهوضاً قوياً بوضع اللسانيات العربية على سكّتها السليمة في ضوء ما ترجمته من مؤلفات لسانية عامة، بعضٌ منها ذو صبغة موسوعية، وهنا نشيد بمؤسسة محمد ابن راشد آل مكتوم، التي تدعم وترعى ترجمة هذه الأعمال العلمية والأدبية والفنية ووضعها في متناول أي متلق عربي أينما وُجِد، وبثمن يكاد يكون رمزيّا.

ومن الأعمال المترجمة الجامعة بين اللغة والاجتماع "دليل سوسيولسانيات" باشراف أو تحرير اللساني الياباني فلوريال كولماس والأستاذ بإحدى الجامعات الألمانية، لكن ما يعاب على هذه الترجمة الجليلة أنها لا تشير، ولو بجرة قلم، إلى من وردت أبحاثهم بأسمائهم، وهذا ما يترك فراغاً أو تسؤلاً في ذهن القرئ العربي لا يسدّ، لأن الباحث الأكاديمي مهوس بهوية من يحيل إليه معلومة، وهذا من حقّه.

وإنصافاً لمترجميْ هذا المؤلَّف السوسيو-لساني وسائر مترجمي المؤلفات الأخرى المُشار إليها في مدخل هذا العرض، فإن الترجمة أصابت شكلاً ومضموناً فيما قدّمته للمتلقي العربي، ولا نعجب في ذلك أيما عجب، حين نعلم أن ترجمتيْ هذا المؤلَّف ومؤلَّف "مدخل لفهم اللسانيات" المُلْمَح إ‘ليه أيضا آنفاً يُشرف عليْهما وعلى غيْرهما لجنة لسانية عربية قديرة حسبها أنها تشمل الأستاذ بسام بركة صاحب "معجم اللسانية"، هذا المعجم الذي على اختصار ما يقابل كل مصطلح لساني أجنبي ما يناسبه من ترجمات، أفدت منه، واستأنست به في عملي "قاموس موسوعي في المصطلح اللساني"، مثلما تضم في قائمتها أساتذة عرب آخرون مرموقون في مجال المعجمية واللسانيات كالأستاذين الجليليْن سعد مصلوح والطيب البكوش، فضلاً على أنّ من قام بمراجعة الكتاب المترجم هذا وغيره اللساني الكبير الدكتور ميشال زكريا.

أجل، ميشال زكريا الذي صدر له كتاب "الألسنية (علم اللغة الحديث)" منذ سنة 1984، أورد فيه ما لا يقل عن أربعين نصّا لسانياً مترجما من لسانيات تاريخية ووصفيّة، ترجع إلى أقطاب وأساطين غربيين وشرقيين وأنجلوساكسونيين نال فيها دي سوسور و نوام تشومسكي حصة الأسد، فضلاً عن نصوص لسانية علمية أخرى متنوعة لأندري مارتني وجاكبسون وهلمسليف وبلومفيلد وتلميذة هاريس وغيرهم

1. [↑](#endnote-ref-1)
2. [↑](#endnote-ref-2)
3. [↑](#endnote-ref-3)
4. [↑](#endnote-ref-4)
5. [↑](#endnote-ref-5)
6. [↑](#endnote-ref-6)
7. [↑](#endnote-ref-7)